الفصـــل الأول

مداولات فكرية – مساهمات علمية – مناقشات تاريخية
صحيفة الأهرام القاهرية
٢٩ أغسطس ١٩٨٣ – ١٧ أكتوبر ١٩٨٣م

الأفغانى .. بين الحقيقة والافتراء

الأستاذ سامح كريم

صحفى جليل بصحيفة الأهرام الغراء بالقاهرة

أيها السادة المثقفون .. لقد كنا ضحية خديعة فاجعة . كنا جميعا مخطئين حين تصورنا أن السيد جمال الدين الأفغانى رجل يوزع السعوط بيمناه . وينشر الثورة بيسراه . كنا مخدوعين حين تصورنا أن جمال الدين الأفغانى ثائر إسلامى . ومصلح اجتماعى . ورجل عظيم أيقظ الشرق من سباته . إن جمال الدين الأفغانى هو عكس ما كنا نتصور . إن اسمه ليس هو اسمه . إن اسمه الأفغانى بينما هو إيرانى ، وليته كان إيرانيا فحسب . إنما هو الإيرانى الغامض .. وهو غامض لأنه أفاق مغامر متلون ..

هذا الاكتشاف « الهزلى » الجديد يدين بوجوده للدكتور لويس عوض كشف عنه فى سلسلة المقالات التى يكتبها لمجلة عربية تصدر فى لندن . ويسمى الدكتور لويس ما ينشره بحثا جريئا .. والأصل فى البحث أن يتحرى الحقيقة . ويحلل الأحداث والمواقف .. ويضىء جوانب كانت غامضة بهدف نهائى هو اكتشاف الحقيقة ..

أما بحث الدكتور لويس فليس كالبحوث . فهو بحث جرىء . ومن ثم فهو لا يلتزم بأصول البحث ، ولا يرجع إلى المراجع المحترمة ... أو المعتمدة ، وإنما يستند إلى مراجع تشبه تقارير المخبرين السريين التى يكتبونها عن ثائر ، فيصفونه بكل رذيلة وشر ، ويسندون إليه كل نقيضة وبلية .. وشر البلية ما يضحك .. ويبذل الدكتور لويس عوض جهدا كبيرا فى بحثه المزعوم ، بينما الحقيقة أنه يرسم صورة كاريكاتيرية للأفغانى .. صورة تفتقر إلى الفن وإن كان هدفها السخرية والتشويه وإسقاط الاحترام .

ويبدو عبث المحاولة فى الجهد الشديد الذى يبذله الدكتور وهو يلوى عنق الأحداث ويستشف منها ما يحاول به تشويه صورة الأفغانى فهو فى البداية والنهاية إيرانى غامض يتسلل وسط الظلام مدججا بالمؤامرات .. ولست أعرف كيف فات على الباحث الجرىء أن يحدثنا عن العلاقة بين الأفغانى والخمينى . ولعله يفرد لنا بحثا فى بحثه الجرىء يربط بينهما ولو بأى رباط .. لا يهم هنا أن يكون الأفغانى قد مات قبل ميلاد الخمينى .. فإن الدكتور لويس يكتب بحثه وفى ظنه أن الناس لا تقرأ ولا تكتب ولا تفهم .

إن تحطيم صور الثائرين المسلمين فى تاريخنا يستهدف عزلنا عن الماضى ، ومحاصرتنا فى الحاضر ، وتجريدنا من ثروتنا فى الأبطال والزعماء . حتى نصير إلى الفقر والوحدة . فيسهل إقناعنا بأى هراء يصبه أصحاب المصالح فى عقولنا .

هذا هو الهدف .. وهو كما نرى هدف يصعب السكوت عليه ... ومن هنا جاء جهد الأهرام فى الرد ..

الأفغانى وتقارير الجواسيس (المقال الثانى للأستاذ سامح كريم) :

مغامر مجهول كافر مجنون مخاطر مغمور زنديق مخبول ملحد مأجور .. أفاق دساس دجال كذاب متلون متفرنج مرتد سكير .. مهيج سياسى .. زعيم إرهابى عميل مزدوج ، رجل لكل القصور ، داع للفوضوية واللاأخلاقية ، منكر لوجود الله ، ينتحل لنفسه لقبا فى كل دولة .. فهو بين الأفغانيين رومى وبين الأتراك والمصريين أفغانى ، وفى بعض الدول استانبولى ، وفى بعضها الآخر بغدادى .. أقام بيننا نحو تسعة أعوام ، ومضى ليبقى إلى اليوم لغزا غامضا !؟

على هذه النغمة الفاسدة .. يظل يعزف الدكتور لويس عوض من إبريل الماضى حتى الآن .. بمجلة « التضامن » التى تصدر فى لندن بالعربية فى بحث عن جمال الدين الأفغانى . يختار له عنوانا يحمل الكثير من الدلالات ، فى هذه المرحلة بالذات .. وهو : « الإيرانى الغامض فى مصر » معتمدا على تقارير

العملاء والجواسيس ، فى سجلات الخارجية البريطانية أو أرشيف الخارجية الفرنسية ، أو محفوظات المباحث والبوليس فى كل من البلدين ، أو كتابات أخرى غير منشورة لأجانب مجهولين .

والمرء يأسف حقا .. من عمل كهذا للدكتور لويس عوض .. الذى نعتز به ناقدا وكاتبا وأستاذا لأكثر من جيل .. وفى معان تجعل الصمت على ما كتبه عن الأفغانى تقليلا من هذه المكانة فى نفوسنا . وتقصيرا حيال واجب فكرى نحو قلم كبير يحمل تبعة ما يكتب ، والأهم تهوينه بالكثير من قيمنا . على اعتبار أن الشك – دون مبرر – فى شخصية كالأفغانى يورثنا الشك فى الكثيرين من رجال التاريخ الأقدمين منهم والمحدثين ، كما يورثنا الشك فى من يكتبون عنهم . وبهذا الأسلوب لا يبقى فى تاريخنا رجل واحد موضع ثقة .

وقبل الوصول إلى إجابة لأسئلة : كيف كتب ؟ وماذا كتب ؟ ولماذا كتب ؟ لنا وقفة تأمل مع هذه المصادر الأجنبية التى يستهل الدكتور لويس بها بحثه ويذكر أنها ظهرت فى السنوات العشر الأخيرة ، كمحاولة للكشف عن شخصية الأفغانى .. فزاد الأمر تعقيدا ، أنقذته محاولات النبش فى وثائق الخارجية البريطانية والفرنسية ، ومحفوظات المباحث فى البلدين فتوارت صورة الأفغانى الأسطورة لتحل محلها صورة الأفغانى المحير . وهنا أذكر الدكتور لويس أن هذا الذى اكتشفته مصادره الأجنبية اكتشفته مصادر عربية منذ أكثر من ثمانين عاما ، وأمامى الآن منها أكثر من ستين كتابا إلى جانب الدوريات . بل إن أهم جانب فى شخصية الأفغانى – على حد تعبير الدكتور لويس – وهو الخاص بجنسيته وعقيدته قد نوقش بصحيفة المؤيد عام ١٩٠٩م ، بعدها حرصت أغلب الكتابات العربية على الإشارة إلى ذلك ، إشارة عظمت لتصبح كتبا تتحاور ، حين ادعى أحد الإيرانيين بأنه ابن أخت الأفغانى ، وكتب مذكرات عنه نشرها ابنه عام ١٩٢٦ فظهرت كتب تدحضه فى مصر والعراق وأفغانستان وإيران .

ونعود إلى سؤال : كيف كتب ؟ وهو بعينه المنهج الذى اتبعه الدكتور لويس فى تناوله لشخصية الأفغانى ، وأول ما يستوقفنا هو اهتمامه بالمصادر الأجنبية

أكثر من المصادر العربية ، ولا بأس فى ذلك ، إذا كانت المصادر الأولى أكثر دقة وأبعد موضوعية ، ولكن أن تكون أغلب مصادره عبارة عن تقارير للعملاء والجواسيس وموظفى السفارات ، فالأمر لا يدعو إلى الاطمئنان العلمى . ومما يؤسف له أن الدكتور لويس كان يميل فى أغلب الأحيان إلى تصديق وثيقة من هذا النوع ، أكثر من تصديق الأفغانى نفسه أو مؤرخ سيرته الأول الإمام محمد عبده ، أو الاثنين معا ، حتى أصبح مألوفا أن تقرأ فى بحثه « ليس صحيحا ما قاله الأفغانى لمحمد عبده .. الصحيح .. » مع أن الدكتور لويس أكثر من يعلم أنه فى كتابة سيرة أى إنسان ينبغى أن يكون الاعتماد الأول على أقواله وأعماله . يأتى بعد ذلك ما كتب عنه بشكل موثق . وبعد ذلك يأتى دور التقارير والكتابات غير المنشورة .

ولأن الدكتور لويس اعتمد على مصادر من النوع الثالث ، فكان عليه أن يستخدم منهجا يجمع بين التاريخ والاستدلال . على اعتبار أن ما لا يحققه التاريخ يحققه الاستدلال .. فالمنهج التاريخى يعاونه على جمع ما يمكن جمعه من هذه الوثائق ، ثم يبدأ فى فحصها وتمحيصها للتأكد من صحتها كنقد خارجى للوثيقة CRITIQUE EXTERNE يتبعها الاستفسار عن صاحب الوثيقة نفسه وهل هو أهل ثقة ؟ وهل هناك ما يؤثر على موضوعيته ؟ ثم عن معنى الوثيقة وهل آمن بها صاحبها ؟ وهل كان محقا فى إيمانه ؟ وهل تدفعه إلى كتابتها إغراءات معينة للحصول على نتائج مطلوبة ؟.. إلى آخره .. وهو ما يعرف بالنقد الباطنى للوثيقة CRITIQUE ENTERNE .

فإذا طبقنا هذه الخطوات على إحدى الوثائق التى اعتمد عليها البحث .. وهى وثيقة كتبها موظف فى حكومة كابول عام ١٨٦٨ كان يعمل جاسوسا لحساب الإنجليز وعنوانها « سجل بأوصاف السيد الرومى فى كابول يشتبه أن يكون عميلا روسيا يخدم فى بلاط كابول » . ثم تقول سطورها الأولى « وجه شاحب اللون ، جبهة عريضة ، عينان زرقاوان له لحية كلحية التيس ، بها بعض الشعر الأحمر ، صغير الشارب ، نحيل البنية حليق الرأس ، عمره نحو ٣٥ سنة » تجد فى هذه الوثيقة أخطاء فى تقدير الأوصاف الجسدية ، وفى تقدير

العمر حيث كان فى الثلاثين لأنه ولد عام ١٨٣٨ وفى تقدير مكانته حيث كان فى أفغانستان الوزير الأول وفى بلاطها الملكى الرجل الأول .. وبالمثل لا نجد لأى وثيقة أساسا من الصلاحية .

يبقى الأمل – بعد ذلك – فى الاستدلال للحصول على مادة جديدة عن الأفغانى وفقا لقواعد الحساب المنطقى ، وهنا نجد صعوبة للتأكد من صحة هذه الوثائق .. فالمعلومات الظنية أو الاحتمالية لا تعطينا أحكاما مؤكدة ، والأقوال غير الصحيحة أو حتى المشكوك فيها لا تصلح مقدمات لنتائج ، والمصادر التى تتعمد تشويه الشخصية موضوع البحث تفرض علينا جنوحا إلى السلبية .

وتطبيقا لهذا المنهج أصبح مألوفا أن ينظر الدكتور لويس إلى تحركات الأفغانى على أنها غامضة مشكوك فيها ، فهو فى أفغانستان عميل مزدوج ، وفى تركيا داع للإلحاد ، وفى مصر مهيج سياسى وداع للفوضوية ، وفى إيران محرض للانقلابات ، وفى الهند متواطئ مع الباب العالى ضد بريطانيا ، وفى كل بلد لابد أن يخرج مطرودا ، وأن يتخذ الدكتور لويس موقفا وسطا مع الوثائق التى تشوه الأفغانى لإدراكه أنه إذا انحاز مؤيدا فسوف يرد عليه وإذا عارض مدافعا فسوف يسلب من بحثه هذا الهدف المضمر مسبقا وهو وضع الأفغانى موضع الشك والبلبلة ، كما نرى فى وثيقة الجاسوس الإنجليزى السابقة ، فنجده بعد تسجيل أوصاف هذا الجاسوس للأفغانى ومنها « له لحية كلحية التيس » نراه يتخذ حيالها موقفا وسطا حين يعلق « وبغض النظر عن الأوصاف الجسدية » ، وهنا أسأل إذا كان الأمر لا يستحق معه إلا غض النظر فلماذا يسجله ؟ لماذا يسجل هذه الأوصاف الشاذة غير الموجودة فى أى من الكتابات الموثوق بها ؟ لماذا يتلقف تشبيها لخيال مريض ويغض عنه النظر ؟ إن الإجابات تنتهى إلى هذا الموقف الوسط الذى يشكك .. وأن يستخدم الدكتور لويس التعميم فى أمور تستوجب التخصيص كأن يردد معنى رفع تكاليف العبادات كالصوم والصلاة بالنسبة للشيعة والمتصوفة ، وأن يستدل على أحكام عامة من مجرد تصرفات عادية كأن يستدل من قول الأفغانى لأمه وهو طفل أن يجعلها حاكمة

على خراسان بأن الأفغانى يتصور نفسه ملك الدنيا أو خليفة المسلمين أو حتى المهدى المنتظر الذى يوزع العروش على أصفيائه ، وأن يستخدم القياس فى الحلقة الرابعة حين يقيس ما فعله الإنجليز بثورة أعظم خان بأفغانستان على ما فعلوه بثورة عرابى فى مصر . ويرفض مبدأ القياس نفسه فى الحلقة الخامسة عندما يستخدمه الأفغانى ويصفه بالجهل والعودة إلى منطق العصور الوسطى ، وأن يستدل من مقطوعة أدبية كتبها الأفغانى وهو فى الثلاثين من عمره وهو فى لحظة يأس على إحساس الأفغانى بالضياع مع أن الأفغانى فى هذا العمر كان ملء السمع والبصر .

على أن المفاجأة الكبرى حيث يسجل الدكتور لويس نفسه فساد هذه الوثائق التى اعتمد عليها حيث يقول فى نهاية الحلقة الرابعة : « إن عمالة الأفغانى للروس لا دليل عليها إلا فى الوثائق البريطانية يؤيدها بعض تصرفاته المريبة لكن معرفتنا بالاستعمار البريطانى تدلنا على أن الإنجليز كالأمريكيين اليوم .. كانوا يصفون كل زعماء الحركات الوطنية بالشيوعية أو بالعمالة للروس . ولذا وجب أن ننتفع من الوثائق البريطانية باحتياط شديد .. » وهنا قدم الدكتور لويس بيديه الدليل الكافى على فساد ما اعتمد عليه .

انتهينا فى الحلقة الماضية إلى إثبات عدم صلاحية أسلوب الدكتور لويس عوض فى تناوله لشخصية جمال الدين الأفغانى ، وننتقل إلى الإجابة على سؤال : ماذا كتب ؟ وأول ما يطالعنا فى البحث هو إصرار الدكتور لويس على القول بإيرانية الأفغانى ثم شيعيته . ومن عجيب الأمور أنه يقول ذلك بينما نجد كلمة « الأفغانى » تتكرر أكثر من عشرين مرة فى كل صفحة من صفحات بحثه ، فيبدو أنه أصبح من الصعب تصديق « إيرانية » جمال الدين بعد أن عاش فى وجداننا أكثر من مائة عام « أفغانيا » .

ورغم هذا .. فلنذهب مع شك الدكتور لويس فى جنسية الأفغانى إلى منتهاه ، ونفترض أن جمال الدين « إيرانى » لكن قبل ذلك نسأله لماذا قرر هذه الإيرانية دون مناقشة أو حتى تأصيل ؟ ولماذا قررها اعتمادا على مصدر واحد بينما العشرات تقول بأفغانية جمال الدين ولماذا قررها استنادا إلى أن صاحب

هذا المصدر الوحيد إيرانى مع أن هناك عددا من المفكرين الإيرانيين يرفضونها وينادون بأفغانيته ؟ والسؤال الأهم الذى كان ينبغى أن نجد له إجابة عند الدكتور لويس هو : متى بدأ القول بإيرانية الأفغانى ؟ هذا السؤال وإجابته فى دراسة عنوانها « السيد جمال الدين : إيرانى أم أفغانى » كتبها أحد تلاميذ الأفغانى وهو الشيخ عبد القادر المغربى عام ١٩٠٩م بصحيفة المؤيد حيث ذهب إلى أن إيرانية الأفغانى كانت بدافع انتقام شاه إيران ناصر الدين – المعروف بحبه للغرب وثقافته ، وتحرره شبه الكامل من الدين والذى اتسم عهده بالعلمانية فشملت الجوانب الاقتصادية والثقافية والاجتماعية وكما يسجل كل من باول شمتز فى كتابه « الإسلام قوة الغد العالمية » ، والدكتور محمد محمد حسين فى كتابه « الإسلام والحضارة الغربية » فأوعز إلى أحد موظفيه ، محمد حسن خان ، وكان يلقب باعتماد الدولة أن يسجل فى الكتاب السنوى للدولة وعنوانه « المآثر والآثار » . أن الأفغانى مولود فى أسد آباد بدلا من أسعد آباد .

ضاعف من هذا الشك ادعاء أحد الإيرانيين « ميرزا لطف الله خان » بأنه ابن أخت الأفغانى ، وأنه كتب مذكرات عنه نشرها ابنه « ميرزا صفات الله خان عام ١٩٢٦ فى كتاب جمال الدين الأسد آبادى المعروف بالأفغانى » الذى يعتمد عليه الدكتور لويس رغم إشارته فى مقدمة البحث إلى كتاب آخر : « جمال الدين الأسد آبادى الملقب بالأفغانى » للأستاذة هوما باكدمان ، ومن عجيب الأمور أن الدكتور لويس يستخدم كتاب لطف الله فى بحثه ، ويحتل من اهتمامه حجما كبيرا ، أمرا جعله يعتبره مصدرين ، أولهما ينسبه إلى الأب لطف الله ، وثانيهما ينسبه إلى الابن صفات الله . مع أنه مصدر واحد : مذكرات تركها الأب ونشرها الابن . وترجمت للعربية .

ولأن لطف الله إيرانى ، ويدعى أنه ابن أخت الأفغانى ، فإن ذلك ألقى ظلالا من الشك حول الأفغانى ، شك لا يزيله إلا الأدلة الحاسمة .

(١) أدلة للأفغانى على أفغانيته : حيث يقول فى العروة الوثقى « الأفغان هى أول أرض مس جسمى ترابها » وحيث يقول فى خاطراته للمخزومى باشا : « اضطررت لترك بلادى الأفغان » وحيث يكتب بخط يده ما يصوره

أبراج أفشار وأصغر مهدوى فى كتابهما مجموعة أسناد ومدارك : « من سكنة كابل من أهالى أفغان – السيد جمال الدين – من سادات كنر » ، وحيث يجيب على أرتو أرنولودز بصحيفة بال مال فى لندن ما ترجمته : « أنا أفغانى أصلا وفرعا وليس لى علاقة بإيران » ، وحيث يؤلف كتابه (تتمة البيان فى تاريخ الأفغان) بروح وأحاسيس لا يستطيعها إلا أفغانى لحما ودما ، وحيث يعلن أفغانيته أمام قاضى البصرة ليبلغها للسلطان عبد الحميد بتركيا : « ليس لى أى علاقة تابعية بإيران كما يشيع الشاه » .

(٢) أدلة للمفكرين الإيرانيين : وهنا أحيل الدكتور لويس إلى كتب : « الكنى والألقاب » للعلامة عباس القمى ، و « إيران » للكاتب الإيرانى إبراهيم صفائى ، و « جمال الدين الأفغانى » لعلى الأستانة ، و « مدرسة جهادرهى » لمرتضى جهادرهى ، و « سيد جمال الدين .. أفغانى » لحسن تقى زاده ، و « تاريخ همدان » للدكتور مهدى درخشان .

(٣) أدلة للمحققين الأفغان : وأحيله إلى كتب الرد على الدكتور الوردى ، للدكتور غلام حسين الأفغانى ، جمال الدين نابغة الشرق ، للدكتور سعيد الأفغانى ، نفحات من تاريخ الأفغانى للدكتور محمد أمان خان الأفغانى ، حياة السيد جمال الدين الأفغانى للعلامة محمد أمين خوكيانى ، السيد جمال الدين أفغانى لغلام جيلانى ، مبارزة السيد جمال الدين الأفغانى لغلام صفدر بنجشيرى .

(٤) أدلة للمستشرقين : وأحيله إلى كتب الإسلام والتجديد لتشارلز أدمز ، التاريخ السرى لاحتلال بريطانيا لمصر ، لألفريد بلنت ، انقلاب إيران للمؤرخ براون ، حاضر العالم الإسلامى للوتروب مستودارد ، رهينة الخمينى ، لروبرت دريفوس ، إلى جانب مقالة جولد تسيهر عن جمال الدين فى دائرة المعارف الإسلامية .

تبقى عقيدة الأفغانى .. وهل ينتمى إلى السنة أم إلى الشيعة ؟ هذه لا تحتاج إلى أدلة بعد إثبات بطلان إيرانيته التى بنى عليها الدكتور لويس عقيدته ، وقبل ذلك بل وأهم من ذلك رأى الإمام محمد عبده ، ولا يلومنا الدكتور لويس

إذا أخذنا به كمفت للإسلام وكمفكر آلت إليه زعامة الفكر العربى فى بدايات هذا القرن حيث يقول فى مقدمته لرسالة الرد على الدهريين : « أما مذهب الرجل فحنيفى وإن لم يكن فى عقيدته مقلدا لكنه لم يفارق السنة الصحيحة » وبذلك لا نستطيع أن نذهب مع الدكتور لويس ونقرر شيعية الأفغانى ، ونبنى عليها نتائج ، تلقى ظلالا من الشك حول شخصية الأفغانى فى مجال العقيدة والدين والفكر والسياسة ومن أجل ذلك نراه يجهد نفسه فى محاولة التفرقة بين السنة والشيعة وبين الاثنى عشرية وفروع أخرى من الشيعة كالبهائية أو البابية أو الشيخية يرى أن الأفغانى كان عضوا فيها ولا نلمح لآرائه أسانيد معقولة ولا حتى مصادر علمية متفقا عليها بل ويظل يردد بطريقة الدق إلى جانب الأذن على التفرقة بين السنة والشيعة ، مع أن الخلافات بينهما كلامية اجتهادية لا تضر بوحدة المسلمين ويكفى أن الاثنين ينبعان من دين واحد هو الإسلام .. وكم كنت أود أن يرجع الدكتور لويس إلى مصادر موثوق بها فى هذا الجانب ليكون لرأيه وزن علمى .

وإذا ما انتقلنا إلى الجانب السياسى للأفغانى فى بحث الدكتور لويس نجده لا يختلف كثيرا – فى نظرته للأفغانى – عما يكتبه الأجانب فى السنوات الأخيرة . فمثلا فى كتاب صدر أخيرا بعنوان « رهينة الخمينى » يصر مؤلفه روبرت كارمن دريفوس على أن يجعل الأفغانى الذى توفى عام ١٨٩٧ مسئولا عما حدث فى إيران عام ١٩٧٩ م ، ففى فصلين كبيرين يخصصهما المؤلف للأفغانى مستلهما بتاريخ للبهائية فى إيران حتى يصل إلى أيامنا هذه حيث يجعل البهائية هى المسئولة عن هز عرش الشاه .

وحين يرصد الدكتور لويس التحرك السياسى للأفغانى فى بلده أفغانستان يراه مشكوكا فى أمره ... معتمدا على تقرير من عميل بريطانى فى أفغانستان يقلقه النفوذ المتزايد للأفغانى فى أفغانستان حيث يصل إلى مكانة الرجل الأول فى الوزارة وفى البلاط الملكى . وبالطبع يكتب هذا العميل لحكومته بأن الأفغانى عميل روسى !!

وبعد رحيله من تركيا يختار الأفغانى مصر مكانا لدعوته ، ليبقى بها نحو تسع سنوات .. غطاها الدكتور لويس فى خمسة فصول من بحثه وقراءتها تضع ملاحظات كثيرة أهمها :

ـ يتردد فى هذا الجانب من البحث أن الأفغانى اقترح على الإمام محمد عبده اغتيال الخديوى إسماعيل على كوبرى قصر النيل ، وأن الإمام وافقه ، ويستخلص الدكتور لويس من ذلك أن الأفغانى زعيم إرهابى وأنه أول من أدخل فكرة الاغتيال السياسى فى قاموس السياسة المصرية على المستوى الشعبى .. وبهذه المناسبة نسأله : هل نفذ أى عملية إرهابية تؤكد زعامته ؟ هل يدلنا على عملية واحدة للاغتيال خططها الأفغانى ونفذها محمد عبده كأداة ؟ هل يستطيع ذلك كما استطاع من قبل أن يجعل من المعلم يعقوب — الذى كون فيلقا لضرب الشعب المصرى معاونا الاحتلال الفرنسى ، ويخرج هاربا مع الفرنسيين ويموت على ظهر سفينة ويضعون جثته فى برميل يلقونه فى البحر — بطلا وطنيا ؟

ـ وفى أكثر من حلقة يردد الدكتور لويس أن الخديوى إسماعيل كان بطلا وطنيا يقود المقاومة الشعبية ضد الدولة العثمانية من جهة وضد التدخل الإنجلوفرنسى من جهة أخرى وأنه زعيم لدعوة مصر للمصريين وزعيم أيضا — للحركة الدستورية .. هل يعقل ذلك ؟ إن من يصدق ذلك كمن يصدق القول بأن الدكتور لويس يدافع عن الإسلام بهجومه على الأفغانى إن تفسير ذلك هو أن الخديوى إسماعيل كانت لديه رغبة فى أن تستقل مصر عن تركيا وتنشىء لها قومية مستقلة ، فى وقت نشطت فيه قيام القوميات فى أوربا ، إنها رغبة بالضبط كرغبة الدكتور لويس فى الهجوم على الأفغانى ، لا يمكن أن نفسرها بأنها من أجل الإسلام لأن واقع الحال يؤكد غير ذلك ، أجتهد فى هذا التفسير حتى لا أسرف فى القول وأسأل هل سر إعجاب الدكتور لويس بالخديوى إسماعيل كان لمقاومة الأخير لفكرة الجامعة الإسلامية ؟؟

ـ ويندد الدكتور لويس باشتراك الأفغانى فى المحافل الماسونية وكنت أتوقع منه كمفكر ليبرالى أن يكون له منظور آخر للأفغانى الذى قال عن هذه المحافل : « إن السبب الأصلى فى قيام المحافل الماسونية .. هو مقاومة سلطة البابا فى أوربا ، ولكن أربابها لما دونوا تعاليمها رأوا أن يسمح لغير المسيحيين أن يدخلوا فيها . وبذلك أصبحت الماسونية حزبا سياسيا لا شائبة للدين فيه »

ورأى الأفغانى يتفق مع رأى الشيخ محمد الغزالى حيث قال مؤخرا عن الأفغانى : « كان منتسبا لأحد المحافل الماسونية ولا أنفى هذا وإنما أسأل فى أى كتاب إسلامى شرحت آثار الماسونية وحذر المسلم منها قبل عصر الأفغانى » .

ـ وتترد فى الحلقة الثانية أقوال حول موقف الإمام محمد عبده من الثورة العرابية ، يفهم منها بأن موقف الإمام كان سلبيا ، حيث لم يتعاون مع العرابيين إلا فى اللحظات الأخيرة حين استفزت الأساطيل الأوروبية فى الإسكندرية الباب العالى فى إستانبول . وإذا ثبت ذلك ثبت أن الإمام محمد عبده تحرك فى اللحظات الأخيرة فى أقسى درجات الأزمة . فإنه موقف يحسب له لا يحسب عليه ، أو كما عبر عنه الأستاذ العقاد فى كتابه عن الإمام قائلا : « ولما استفحلت الحركة العرابية وضرب الأسطول الإنجليزى الإسكندرية انضم الشيخ محمد عبده إلى العرابيين ووضع يده فى أيديهم ، لأن الواقعة قد وقعت .. » فلو أن الإمام محمد عبده كان سلبيا مع العرابيين كما تصوره حلقات الإيرانى الغامض لكان قد ولى الأدبار ، فى هذه اللحظات بالذات واختار الجانب المنتصر ، أو حتى لاذ بالصمت ، لكن الذى حدث أنه اختار جانب العرابيين وهم فى أزمة ليتشرد وينفى .

ـ ويذهب الدكتور لويس إلى القول بأن الأفغانى كان رجعيا فى السياسة ، تقدميا فى الدين ، يقول رجعيا ومنذ لحظات يقول : الأفغانى كان يتحرك بوضوح فى مرحلته المصرية أساسا بين صفوف المجددين والديمقراطيين والدستوريين والعرابيين ودعاة مصر للمصريين ، ولا يتحرك داخل معسكر الرجعيين ، دعاة الحكم المطلق .. ويستكثر الدكتور لويس على الأفغانى أن يتعاون مع رياض باشا المعروف برجعيته ويندد بذلك ، بل ويقول فى الحلقة الخامسة : « الأفغانى فى كل مرحلة من مراحل حياته مع الثوار على السلطة .. فهو فى إيران مع البابيين ضد الشاه .. وفى الهند مع الثوار ضد الإنجليز ، وفى أفغانستان مع الثائر أعظم خان .. » فكيف يقال عنه بعد ذلك إنه رجعى ؟

– ويرى الدكتور لويس أنه غير صحيح ما يقوله محمد عبده وغيره من

أن دور الأفغانى فى تحريك الفكر المصرى كان أهم عامل فى إشعال الثورة العرابية . يقول هذا ومنذ لحظات كان يقول : إن الأفغانى اختار التحرك بوضوح بين صفوف المجددين والديمقراطيين والدستوريين والعرابيين ، ولا ندرى من نصدق : الدكتور لويس فى تناقضه أم الإمام محمد عبده أحد المشتركين فى الثورة أو مؤرخ مصر الحديثة عبد الرحمن الرافعى الذى يقول عنه تحت عنوان « جمال الدين أبو الثورة العرابية » مؤكدا أن الأفغانى كان من الوجهة الفكرية أبو هذه الثورة الروحى ؟

وبعد فلا يبقى إلا الإجابة على سؤال : لماذا كتب الدكتور لويس عوض هذا البحث ؟ والإجابة تطل من سطوره الأولى حيث يلوح بمنهج يعمل على تحطيم جمال الدين ، حتى ولو كان أسطورة ، بتصيد العورات والأخطاء الصحيحة وغير الصحيحة .. ثم التعامل معها بمنهج يضع الرجل موضع الشك والريبة والبلبلة على طول الخط فهل نجح فى ذلك ؟

تحركات الأفغانى السياسية (المقال الثالث للأستاذ سامح كريم) :

يستوقفنا الشبه العميق بين ما كتبه الدكتور لويس عن تحركات الأفغانى السياسية وبين ما نشره روبرت كارمن دريفوس ، منذ ثلاث سنوات عن الأفغانى أيضا فى كتابه « رهينة الخمينى » الأمر الذى يجعل الإشارة إلى هذا البحث تصلح تقدمة لما كتبه الدكتور لويس عن الأفغانى .

ويبدأ المؤلف الأجنبى بتاريخ للبهائية فى إيران حتى يصل إلى أيامنا هذه فيجعلها مسئولة عما حدث فى إيران ، بعد ذلك يقدم لنا الأفغانى ذلك البهائى الأكبر ، منظم أول حركة بهائية شاملة فى العالم ويسجل مراحل حياته مبتدئا من أنه أفغانى من أصل يهودى ، ثم يبدأ فى رصد تحرك الأفغانى السياسى بعد أن أصبح الوزير الأول فى بلده أفغانستان ، بعد ذلك يسافر للهند وتركيا ومصر وباريس ولندن وفى مصر يلتف حوله الأتباع والمريدون .

ويعلن عن قيام عدد من الجمعيات الإسلامية يعتبرها المؤلف أجهزة للمخابرات الإنجليزية فى الشرق ويطرد من مصر بعد أن يكون قد أشعل

الشرارة الأولى للثورة العرابية التى يراها هذا المؤلف قد أعطت مبررا منطقيا للاحتلال البريطانى ، ويتجه إلى باريس حيث يؤسس جمعية العروة الوثقى لوحدة المسلمين ويرى المؤلف أن تحت رايتها تجمعت كل التنظيمات الإرهابية المبعثرة .

ويذكر أن الأفغانى تفاوض مع الإنجليز حول السودان قائلا : إذا انسحبت بريطانيا من السودان فإنه سيرتب حلفا تحت إشراف البريطانيين بين تركيا وإيران وأفغانستان ضد روسيا ، ويختم بحثه عن الأفغانى بالقول : إن حركة الإرهاب التى أسسها الأفغانى فى الربع الأخير من القرن ١٩ لم تمت بموته وإنما امتدت إلى الربع الأخير من القرن ٢٠ لتطيح بالشاه وتضع المنطقة فوق بركان من الخطر .

ولا يختلف الدكتور لويس عن هذه الروح عند تسجيله لتحركات الأفغانى السياسية معتمدا على تقارير الجواسيس أو خطابات مجهولة الاسم ، أو تفسيرات تقودنا من غموض إلى إبهام .

فحين يرصد للتحرك السياسى للأفغانى فى بلده أفغانستان ، يراه مشكوكا فى أمره . معتمدا على تقرير من عميل بريطانى فى أفغانستان يقلقه النفوذ المتزايد للأفغانى حيث يصل إلى مكانة الرجل الأول فى الحكومة والبلاط . وبالطبع يقدم هذا العميل لحكومته تفسيرا لذلك هو أن الأفغانى عميل لروسيا !

وياليت الأمر ينتهى عند حد العمالة للروس . إن الدكتور لويس يرى الأفغانى يخدم مصالح تركيا ، حين ينسق كفاح مسلمى آسيا بشكل يؤدى إلى وحدة العالم الإسلامى تحت راية الخلافة العثمانية . وهكذا يضيف إلى عمالته للروس عمالة جديدة لتركيا !

وتكتمل صورة الشك لدى الدكتور لويس فى الأفغانى حين يتساءل من الذى قدم هذا الرجل الإيرانى لأمير أفغانستان حتى يصل إلى أعلى المناصب ؟

ولا يكتفى بأن يصفه بالعمالة لروسيا أو لتركيا ، وإنما يراه عميلا مزدوجا لأنه كان مدسوسا من الأمير شير على خان على الأمير أعظم خان ، لأداء

مهمة معينة وأن سر غضب أمير البلاد على الأفغانى هو أنه انقلب فتبنى خط تحالف أعظم خان مع روسيا بدلا من تبنى خط تحالف شير على خان مع بريطانيا .

وحين يرصد لتحركاته السياسية فى تركيا يقلل الدكتور لويس من شأن الأفغانى ، حيث يتساءل عن الركائز التى نشأت له فجأة فى تركيا وهل كانت بتوصية ؟ ويستكثر عليه ترحيب رجال التعليم بإستانبول ويرى من خلال التقارير « إياها » أن ذلك قد تم بسبب قصيدة شعرية – لا يذكر بيتا منها – كتبها الأفغانى فى مدح وزير الداخلية ولا ندرى ما العلاقة بين وزير الداخلية ورجال التعليم ، حتى إذا مدح الأفغانى الوزير بقصيدة مزعومة ، نهض رجال التعليم بالترحيب به فى تركيا .

ويصف كلمة ألقاها الأفغانى بالعربية فى حفل افتتاح الجامعة التركية بأنها سخيفة تقول فى أربعين سطرا ما يمكن أن يقال فى أربعة سطور مع أن القارئ لهذه الكلمة – بعد أن ترجمها الدكتور عن كتاب بالإنجليزية لنيكى كيدى ، والأخيرة ترجمتها عن بحث بالتركية لكيسكيوغلو الذى كان قد ترجمها عن العربية – يرى أنها ليست سخيفة ويكفى أنها نالت عشرين سطرا من اهتمام الدكتور لويس كتعليق . ولكن ما العمل والدكتور لويس لا يثق فى كلمة ألقاها صاحبها بالعربية ويفضل أن يترجمها إلى العربية بعد مرورها بثلاث مراحل من الترجمة فربما يكون المترجمون للكلمة أقدر وأدق على التعبير من صاحبها !؟

وفى تاريخه للمرحلة الهندية يعتمد الدكتور لويس على خطاب كتبه رجل اسمه (حسين) للمقيم البريطانى يبلغه بنشاط الأفغانى ، أو على تقرير جاسوس اسمه « عزيز الدين » بعد ذلك يذكر أن الأفغانى بدأ يخالط أحرار الفكر ودعاة الجمود وكأنه أحد من كل فئة ! ويبدأ فى تنفيذ مخططة الذى تضمنته رسالة خطيرة جدا . ولكنها مجهولة ؟ ولأنها مجهولة المرسل إليه فلابد أن يفترض الدكتور لويس أنها للسلطان أو للصدر الأعظم ولما كانت مجهولة التاريخ فلابد أن يفترض أنها كتبت فى فترة الحرب بين تركيا وروسيا ؟ وتتضمن هذه الرسالة

الخطيرة جدا دعوة الأفغانى للجهاد الدينى تحت راية الإمبراطورية العثمانية ، على غرار ما فعل ، أبو مسلم الخراسانى ، الذى عفر وجوه حكومة بنى أمية فى الرغام ، أو ما فعله ، بطرس الناسك ، يوم حمل على ظهره صليبا وطاف به مدن بلاد الإفرنجة مناديا « إلى المعركة » فكانت الحرب الصليبية يعنى باختصار الأفغانى يريد إشعال الحرب الدينية تحت راية الدولة العثمانية .

ويقرر الدكتور لويس أن الأفغانى فشل فى مرحلته الهندية لذبذبته السياسية ونسأله هل فشل لأنه دعا للوحدة بين مسلمى الهند وهندوسها ضد الاستعمار الإنجليزى ؟ أو هل فشل حين دعا إلى إقامة دولة إسلامية تفصل الهند وروسيا هى باكستان اليوم ؟ أم هل فشل لأنه كان يعمل من أجل الوحدة الإسلامية ؟

ويتجاوز كل حدود حيث يقول عن الأفغانى : إنه لا يتبع دينا معينا كما افترض من قبل أقوالا لا وجود لها على لسان أبى الحسن بن لطف الله (حلقة ٢) تصور الأفغانى لا يحافظ على شعائر الدين وبالرجوع إلى المصدر الذى أشار إليه فلم نجد فيه ذلك . ويقول عن الأفغانى إنه لا يهمه أن يكون الدين زائفا أو منحطا المهم استمرار المجتمع !

وتبدأ المرحلة الأوروبية بباريس حيث ينقل صورة خطاب كان الأفغانى قد بعث به لرياض باشا أثناء مروره ببورسعيد وفيه ينقل له شماتة الأفغانى فيما نزل بالقاهرة بعد الثورة العرابية والاحتلال البريطانى لأنها ارتكبت فى حقه ذنوبا وهذا الكلام مشكوك فيه ، لأن الأفغانى الذى يعتبر أبا للثورة العرابية لا يشمت إن أخفق رجالها وبالطبع يعلق د. لويس قائلا ، أى درجة من البارانويا هذه ، وهل نحتاج لفهم الدكتورلويس للعلم اللدنى كما نصحنا من قبل ؟

وفى مرحلة العروة الوثقى يذكر أن الأفغانى اتبع فى سبيل قضية الجامعة الإسلامية أساليب خسيسة لا أخلاقية . وبالطبع لا ينجو الإمام محمد عبده من هذا التهجم حيث يذكر الدكتور لويس من خلال خطاب مرسل للأفغانى واقعة تتهم الشيخ الإمام لأنه تسلم مبالغ من تونس تبرعا لتمويل العروة الوثقى ولكنه لم يسلمها للأفغانى وسافر بها إلى بيروت ولم يلتقيا إلى يوم الممات !؟

وحول الفترة القصيرة التى قضاها الأفغانى بلندن .. نقرأ للدكتور لويس فى حلقته الأخيرة بحثا مطولا عنوانه « الأفغانى ملكا » معتمدا على مجرد لقاء بينه وبين جاك بيرك أبلغه فيه أن الوثائق فى بعض وزارات الخارجية الأوروبية تتحدث عن أن الحكومة الإنكليزية اتفقت مع الأفغانى بعد موت المهدى على تعيينه ملكا على السودان ، وهكذا ؟ أصبح لا حاجة لنا للوثائق ، فيكفى مجرد لقاء بين اثنين ليتحدثا ليصبح وثيقة تعيننا على دراسة مفكر كالأفغانى .. وعلى هذا اللقاء كوثيقة شفوية يرى أن تعيين الأفغانى خليفة المهدى يسهل إقامة الحلف الإسلامى ضد روسيا .

ولابد أن تنتهى حلقات الإيرانى الغامض بنهاية غريبة ، فبعد أن يقص علينا فى السطور الأخيرة قصة زائرين للأفغانى كانا يزورانه فى بيت « بلنت » فتشاجرا وتماسكا بالأيدى مما اضطر « بلنت » أن يطرد الأفغانى وضيفيه ويعلن انتهاء استضافته لأنه رجل يرى كل ما فيه آسيويا لا يستأنس .

وبعد ، فمن حق أحدنا أن يجتهد وأن يخطىء فى اجتهاده ولكن ليس من المعقول أن نسكت على هذا الخطأ خصوصا لو كان يمس قيمنا .

وإذا كان من حق الدكتور لويس عوض أن يكتب عن رجال التاريخ الأقدمين والمحدثين بوجهة نظره الخاصة فمن حقنا أيضا أن نقرأ وجهة نظره باحتياط شديد كما فعل هو عند قراءته للأفغانى كان يردد « الاحتياط دائما كالعادة لأن الأفغانى عودنا أن يروى الأمور من وجهة نظره » .

من حق الدكتور لويس أن يكتب ما شاءت له الكتابة ومن حقنا أيضا أن نقرأ وجهة نظره حتى لو كانت ضارة بالضبط كحقنا المشروع فى التدخين مع علمنا التام بأن التدخين ضار جدا بالصحة .

قصور البحث .. وغياب المنهج

د. جابر قميحة

جامعة عين شمس

ولد جمال الدين الأفغانى فى قرية أسد آباد ، بالقرب من مدينة همدان فى غرب إيران ، وليس فى قرية أسعد آباد الأفغانية ، ونشأ نشأة شيعية ، وتلقى التعليم على أيدى الشيعة والبهائيين « مجلة التضامن العدد الأول » ومعروف أن الشيعة يؤمنون بالتقية أى كتمان الآراء والمعتقدات وإظهار الإنسان خلاف ما يبطن ... وقد نشأ الأفغانى فى هذه التقاليد الشيعية التى جعلت منه إنسانا مزدوج الشخصية بل ومتعددها ، يفصل الكلام والتعاليم بحسب ما يخاطبه ، وبحسب لظروف الزمان والمكان ، حتى بدت تعاليمه وأقواله المأثورة ومواقفه وتحركاته جملة من المتناقضات التى يصعب نسبتها إلى رجل واحد (التضامن العدد الثانى) ولم يكن الأفغانى متدينا بالمعنى المفهوم ولكنه كان ينظر إلى الدين كمجرد دافع للجماهير الجاهلة لتحصيل الاستقلال السياسى أو بناء الإمبراطوريات (التضامن العدد الثالث) .

وفى شبابه كان متفرنجا لا يعيش كالمسلمين ، ولكن يعيش كالأوروبيين وفيما يبدو لا يتبع دينا معينا (التضامن العدد الرابع) وكان يجاهر بعصيان الدين أثناء إقامته فى كابول فكان يفطر علنا فى رمضان (التضامن العدد السادس) فلما جاء إلى مصر شدد عليه رياض باشا أن يهتم بشعائر الدين حتى تقبله بيئة الأزهر (العدد السابق) .

وقد ظهر فى مصر لا فى صورة المفكر والسياسى فحسب ، بل فى صورة زعيم إرهابى يمكن أن ينظم الجمعيات السرية للاغتيال السياسى على غرار ما كان يفعله الفوضويون فى أوروبا (التضامن العدد الثامن) .

عنوان البحث يبرز أمامنا ثلاث نقاط مهمة هى :

١ – منطوق العنوان هو « الإيرانى الغامض فى مصر » ، وهو بذلك يعد

حكما يقطع – من ناحية – بأن جمال الدين إيرانى الجنسية « مع أن الراجح كما سنرى أنه أفغانى المولد » وهو من ناحية أخرى يقطع بأن شخصيته « غامضة ذات دروب خفيه وخبايا » وذلك يعنى أن ماكتبته عنه أقلام أخرى من صراحة وجرأة ووضوح وتدين ليس بشىء .. والعنوان بهذا المنطوق المثير يذكرنا بعناوين القصص والأفلام البوليسية المثيرة مثل « القاتل المجهول » و « الرجل الخفى » .

٢ – يأتى نشر حلقات البحث بهذا العنوان لتثير فى وقت أصبح فيه لكلمة « الإيرانى » انطباع سيئ فى نفس القارئ العربى وخصوصا المصرى ... فهو لا يطرق سمعه الآن عن الثورة الإيرانية وزعيمها إلا ما يحزن ويؤلم ويثير الأسى والنقمة . فما بالك إذا كان هذا الإيرانى إيرانيا غامضا ، وكأن بهذا التوقيت الزمنى يهدف إلى خلق لون من اللقاء أو الربط النفسى بين الحاضر والماضى القريب الذى عاشه جمال الدين الإيرانى ، وأن يقرأ العربى عن جمال الدين وطيف الخمينى لا يفارق خاطره ، وأن يتابع حركات جمال الدين وهو أسير الانطباعات التى تثقل كاهله عن الثورة الإيرانية .

٣ – إن مجلة التضامن دأبت على تصدير كل حلقة من حلقات البحث بعبارة « بحث جرىء عن جمال الدين الأفغانى » وهو وصف يعكس إيحاء قويا بأن هذه الحلقات فيها خروج وتمرد على ما كتبه الكتاب ، وعرفه الناس عن جمال الدين ، مع أن البحوث وخصوصا الأكاديمى منها – لا توصف عادة بالجرأة أو الجبن – ولكنها توصف عادة بالموضوعية والتجرد أو بالهوى والتحيز .

وأعتقد أن القارئ يشهد بالبراعة والتوفيق للمجلة والكاتب فى نطاق هذه الثلاثية التى ذكرتها ، فمنطوق العنوان حكم جازم بالإدانة المسبقة على شخصية « يعتقد » أنها قمة من قمم الشرق فكرا ودينا وخلقا .

وتوقيت النشر : أصاب المحز – كما يقولون – إذ جاء مع جو نفسى مهيأ لتقبل أى مذبحة فكرية – مهما كانت ضراوتها – لكل ما هو إيرانى .

والوصف بالجرأة بعد ذلك يعضد من قيمة البحث – ويمنح البحث وصاحبه شهادة بالتجديد والتحرر الفكرى .

ولكن دعك من هذا العنوان ولننظر إلى طبيعة الأحكام التى خلعها الدكتور لويس – بكرم فياض – على جمال الدين الأفغانى . إنها فى إيجاز – تقف على طرف مناقض تماما لما كتبه علماء غربيون عرفوا بسعة الثقافة والقدرة على التعمق والتحليل والتمحيص من أمثال رينان وبراون وجولدزيهر ولوثر ستودارد ، ونكتفى بسطور قليلة مما قاله بروان عنه ، كان جمال الدين فيلسوفا وكاتبا وخطيبا معا ، وكان يرمى إلى تحرير هذه الدول (الشرقية) من النفوذ الأوروبى واستغلال الأوروبيين ، والنهوض بها نهوضا ذاتيا من الداخل .

وحتى أرنست رينان الذى هاجم الإسلام فى إحدى محاضراته بالسربون وتصدى له جمال الدين ناقضا ما ذهب إليه فى مقال نشره جمال الدين فى الجريدة الباريسية JOURNAL DES DEBATS يقول رينان عن جمال الدين فى رده على مقاله « تعرفت بالشيخ جمال الدين من شهرين فوقع فى نفسى منه ما لم يقع إلا من القليلين ، وأثر فىَّ تأثيرا قويا وقد جرى بيننا حديث عقدت من أجله النية على أن تكون علاقة العلم بالإسلام هى موضوع محاضراتى فى السربون – والشيخ جمال الدين نفسه خير دليل يمكن أن نسوقه على النظرية العظيمة التى طالما أعلناها وهى أن قيمة الأديان بقيمة من يعتنقها من الأجناس ، وقد خيل إلى من حرية فكره ونبالة شيمه وصراحته – وأنا أتحدث إليه – أنى أشهد ابن سينا أو ابن رشد .. » كذلك جاء ما كتبه الدكتور لويس مناقضا تماما لما كتبه علماء شرقيون عدول من أمثال محمد عبده ورشيد رضا ومحمد باشا المخزومى وأحمد أمين وعبد الرحمن الرافعى والدكتور عثمان أمين والدكتور محمود قاسم . وكذلك سليم العنحورى الشامى المسيحى المهاجر الذى اتهم جمال الدين بالإلحاد ، ثم تبين له وجه الصواب . فكتب معترفا بخطئه فيما رمى به الرجل العظيم ، ولم تأخذه العزة بالإثم .

وأعتقد أن أعدى أعداء جمال الدين وأعدى أعداء الشرق الذين نقدوا جمال الدين ، وشوهوا بعض جوانب شخصيته لم يبلغوا بعض ما بلغه الدكتور لويس فى حلقات بحثه الأكاديمى من سلب جمال الدين كل محمدة من محامده ،

وقذفه بكل هذا الفيض الغامر من النقائض والمثالب . حتى يظن من يجهل تاريخ الرجل أنه كان مسخا فى فكره ودينه وغاياته ووسائله .

ولا أدعى أن جمال الدين فوق النقد ، فهو بشر يخطئ ويصيب ويخفق وينجح ، كما أن أقوال السابقين وشهاداتهم للرجل لا تلزم الباحث أن يتبع نفس النهج ويستقى من نفس المشرب ، فمن حقه أن يرفض بعض ما قيل عن جمال الدين بل كل ما قيل عنه . ومن حقه أن يحاول أن يفجع الأمة الإسلامية والفكر الإسلامى الناهض فى شخصية كان لها أثرها البالغ العميق فى البعث الفكرى والنهوض السياسى والدينى .

من حق الدكتور عوض أن يفعل كل أولئك . ولكن من حقنا – وقد صدرنا مقالنا بأحكامه – أن نبحث عن ركائزه العلمية التى اعتمد عليها ، ومصادره التى استقى منها ، ومنهجه فى التعامل مع المعطيات التاريخية التى أثرت فى مجريات السياسة والفكر ، وتفاعلت مع شخصية جمال الدين تأثرا وتأثيرا .

حتى أكون أمينا مع نفسى وقارئى أعترف بأنه كان ثمة سؤال يلح على أثناء قراءتى مقالات الدكتور لويس وبعد انتهائى منها وهو : ما حكمنا على من يكتب تاريخ السيد المسيح عليه السلام – معتمدا اعتمادا كليا أو شبه كلى على أقوال الفريسيين واليهود « أبناء الأفاعى » و « خراف إسرائيل الضالة » كما كان يصفهم السيد المسيح عليه السلام ؟!!

وما حكمنا على من يكتب تاريخ النبى محمد – عليه السلام – اعتمادا على تصورات الكفرة من أمثال أبى جهل والمنافقين من أمثال عبد الله بن سلول واليهود من أمثال حيى بن أخطب وكعب بن الأشرف ؟

أعتقد أن السؤال فى غنى عن جواب ، وأعتقد أنه ما خطر لى أو ما فرض نفسه على إلا لأنى رأيت الدكتور لويس يجعل ركيزته الكبرى فى بحثه الجرىء « الوثائق البريطانية » وهو حينما يتحدث عن هذه الوثائق يتحدث عنها بتقدير وإجلال وثقة كاملة وبعبارات تجرى على النسق التالى ، وقد « أثبتت الوثائق البريطانية » و « أكدت الوثائق البريطانية » وكأن الدكتور لويس يجهل أن هذه

الوثائق إنما هى وثائق الرجال الذين عاش الأفغانى يحارب إمبراطوريتهم فى كل مكان يحل به . ويؤلب عليهم الشعوب ويلهب ضدهم المشاعر .

وما يقوله كبار المسئولين الإنجليز من أمثال السيرفرانك لاسيز قنصل إنجلترا العام فى مصر عن جمال الدين من وصفه بالعمل على نشر مبادئ الفوضى ، وما يقوله مراسل التايمز فى رسالة يصف فيها الأفغانى بأنه « ذو ماضٍ مريب » (التضامن العدد الأول) ، كل هذه الأقوال لها عند الدكتور لويس احترامها وقدسيتها ، بل إن الدكتور لويس يفتح صدره فى سماحة وكرم لتقارير الجواسيس فيكتب (فى العدد الأول من التضامن) بالحرف الواحد « انظر إلى هذا التقرير الذى كتبه موظف فى حكومة كابول سنة ١٨٦٨ كان يعمل جاسوسا لحساب الإنجليز والتقرير بعنوان سجل بأوصاف السيد الرومى فى كابول (يقصد جمال الدين) يشتبه أن يكون عميلا روسيا يخدم فى دوبارة (بلاط) كابول » .

وتنتهى كل هذه التقارير والوثائق إلى أن الأفغانى كان « عميلا روسيا مأجورا » بل وأكثر من ذلك . كان عميلا مزدوجا DOUBLE AGENT وهذا ما يرجحه الدكتور لويس عوض ويطمئن إليه (التضامن العدد الرابع) .

أما ما يقوله جمال الدين عن نفسه تعبيرا عن فكره ومعتقده فهو مرفوض عند الدكتور لويس عوض .

أما شهادة طلابه ومريديه ومعايشيه من أمثال محمد عبده ورشيد رضا والمخزومى فموضع شك كبير عند الدكتور لويس عوض .

التزوير وأمانة الكلمة (المقال الثانى للدكتور قميحة) :

استعرضنا بالأمس ملامح الصورة الممسوخة التى رسمها الدكتور لويس وتحدثنا عن الطبيعة العامة لأحكامه وكيف كانت فى مجموعها متناقضة مع ما قاله غربيون وشرقيون أعمق فكرا وأوسع ثقافة ورأينا كيف جعل الكاتب مصدره الأساسى تقارير الجواسيس ووثائق الحكومة البريطانية التى عاش الأفغانى حربا عليها فى كل مكان يحل به واليوم نرى مع قرائنا كيف تعامل الأستاذ الأكاديمى مع النصوص وأحداث التاريخ ..

فلنسر مع هذا « الخط المنهجى » إلى حين – ولننظر فى نصوص الدكتور لويس ووثائقه ووقائعه – وسنكتشف أنه – فيما يستخلصه ويستنبطه من نتائج وأحكام – يحملها – لا أقول أكثر مما تحتمل فحسب – بل يحملها – فى كثير من الأحيان – مالا يمكن أن تحتمله إطلاقا ولنعايش بعض الأمثلة :

١ – أغلب الأقوال شرقيها وغربيها – تؤكد أن جمال الدين أفغانى المولد – سنى المذهب – وأنه ولد فى أسعد آباد وهى إحدى القرى التابعة لخطة كنر بالأفغان ، يرتقى نسبه إلى الحسين بن على ، وممن حقق ذلك بدقة واستفاضة : المؤرخ العظيم عبد الرحمن الرافعى فى كتابه القيم عن جمال الدين .

ولكن بعض الإيرانيين يزعم أنه ولد فى قرية أسد آباد الإيرانية وهو قول لا دليل على صحته ، وإن كان هذا التنافس على نسبة جمال الدين يعد فى ذاته شهادة بعظمة الرجل وعلو مكانته ، وجمال الدين نفسه قد حسم هذه القضية بما نقله عنه أقرب الناس إليه مثل محمد عبده وشكيب أرسلان وعبد القادر المغربى فمن أقوال جمال الدين : « ونظرت إلى الشرق وأهله فاستوقفتنى الأفغان وهى أول أرض مس جسمى ترابها » وقوله مرة أخرى « ... وقد اضطررت لترك بلادى الأفغان ... » .

٢ – ويذهب الدكتور لويس إلى أنه كان يؤمن بالقضية ويظهر خلاف ما يبطن .. مع أن التاريخ يقطع بأن حياة الأفغانى كلها كانت سلسلة متصلة الحلقات من الجرأة والشجاعة والصراحة .. وقد كلفه ذلك من جهده وصحته واستقراره الشىء الكثير ، وكثيرا ما كانت شجاعته تتحول إلى حدة وهياج فى مواجهة القادة والزعماء يقول عنه محمد عبده : « .. وهو شجاع مقدام لايهاب الموت كأنه لا يعرفه ، إلا أنه حديد المزاج وكثيرا ما هدمت الحدة ، ما رفعته الفطنة » وحينما كتب محمد عبده من مصر كتابا لجمال الدين وهو فى الآستانة كتابا غفلا من الإمضاء ويظهر أن ذلك كان خوفا من الرقابة ، أرسل إليه يؤنبه على هذا التصرف قائلا : « .. تكتب ولا تمضى ؟؟.. أمامك الموت ولا ينجيك الخوف ، فكن فيلسوفا يرى العالم ألعوبة ، ولا تكن صبيا هلوعا » .

وبسبب صراحته وجرأته « جرد » عليه شاه إيران ناصر الدين حملة من خمسمائة جندى وسحبوه مسلسلا فى الحديد وألقوا به خارج البلاد وهو مريض فى يوم جليدى شديد البرد ، فأخذ يهيج مشاعر الناس على الشاه فى كل بلد يحل به .. ولما استقر به المقام فى الآستانة طلب منه السلطان عبد الحميد أن يكف عن مهاجمة الشاه .. فقال جمال الدين : « إنى لأجلك قد عفوت عنه » وكان يحدث وهو يلعب بحبات مسبحته فلما طلب منه بعض الحاشية أن يكف عن ذلك قال : « إن السلطان يلعب بمستقبل الملايين من الأمة أفلا يحق لجمال الدين أن يلعب بمسبحته كما يشاء ؟؟ » .

ويطول بنا المقام لو رحنا نعدد الشواهد والوقائع التى تنفى عن الرجل القول بالجبن والتقية وإظهار خلاف ما يبطن ، فكم جابه الحكام فى صراحة لا يظهر لها ، وخاصة بدعوته إلى الشورى والحكم النيابى ، ومن هؤلاء الخديو توفيق وقيصر روسيا .

والغريب أن الدكتور لويس نفسه عاد فنقض ما ذهب إليه من القول بتقية الأفغانى حين يقول : « وكان الأفغانى يتحرك بوضوح فى مرحلته المصرية فى سنة ١٨٧١ إلى سنة ١٩٧٩ أساسا بين صفوف المجددين والديمقراطيين والدستوريين والعرابيين ودعاة مصر للمصريين .. » .

وفى سيرة الأفغانى لأديب إسحق ، فأجرت له الحكومة الخديوية رزقا على أن يكون من المدرسين فجرت بينه وبين علماء الأزهر مناظرة أفضت إلى المنافرة ، فانقطع إلى منزله وصار له فيه حلقة تدريس « التضامن العدد ٦ » .

فالموضوع والمواجهة الصريحة لا يتفقان مع منطق التقية التى تعتمد على التورية والمجاراة وإظهار خلاف الباطن .

٣ – يذهب الدكتور لويس إلى أن جمال الدين طرد من المحفل الماسونى « التضامن العدد ١٤ » ، والثابت أن جمال الدين الأفغانى اشترك فى المحفل الماسونى الإنجليزى مشدودا على حد قوله بشعارهم الكبير الخطير .. « حرية . مساواة . إخاء » .. وكان المحفل يضم أشراف الناس وكبراءهم .. وصدم جمال الدين حين رأى أن هذا الشعار لا وجود له فى واقع هؤلاء الأعضاء

بل لم يجد منهم إلا الجبن والسلبية والتزاحم على المناصب ، فاستقال ، وأنشأ محفلا آخر تابعا للشرق الفرنسي ونجح فى تنظيمه حتى بلغ عدد أعضائه ثلاثمئة عضو . وكان يبغى من ذلك إيصال دعوته الإصلاحية إلى كبار الناس وعظمائهم .

٤ – ولم يكن الأفغانى يستحل لنفسه اتباع الوسائل الخسيسة فى سبيل تحقيق غاياته النبيلة أو غير النبيلة .. فيكفى للرد على ذلك ما جاء على لسان محمد عبده إذ قال : « ماذا كان يضر السيد الأفغانى لو مهد لإصلاحه – وهو فى الآستانة – بالسعى عند السلطان فى إعطاء أبى الهدى الصيادى خمسمائة جنيه ونيشانا لابنه أو لأخيه فإذا رأى أبو الهدى أن السيد يخدمه ، فإما أن يواتيه وإما ألا يناوئه ؟

ولكن ما كان للسيد الأفغانى أن يسلك مثل هذه الخطة حتى لو حققت من النفع العام الكثير والكثير . ولما دس له أبو الهدى الصيادى عند السلطان قال له عبد الله النديم : ليتك ذكرت للسلطان دسائسه وضرره . فغضب جمال الدين وقال : « أعوذ بالله أن أكون من المنافقين » أو أن أفعل ما أنكره على الغير ، أو أن أكون همازا مشاء بنميم » .

فالغاية عنده لا تبرر الوسيلة ، والنفس الكبيرة لا تستشرف إلا الغايات العلية ولا تتبع إليها إلا الوسائل الشريفة النبيلة .

٥ – وهل كان جمال الدين متعصبا دينيا .. داعيا إلى التعصب الدينى فى مرحلة « العروة الوثقى » التى عاشها فى باريس ؟ « التضامن العدد ١٩ » .

إن واقع العروة الوثقى يفند هذا الادعاء .. فمما كتبه فى إحدى مقالاته بالعروة الوثقى : « لا يظن أحد من الناس أن جريدتنا هذه بتخصيصها المسلمين بالذكر أحيانا ، ومدافعتها عن حقوقهم – تقصد انشقاقا بينهم وبين من يجاورهم فى أوطانهم ويتفق معهم فى مصالح بلادهم ويشاركهم فى المنافع من أجيال طويلة فليس هذا من شأننا ولا مما ندعو إليه ، ولا مما يبيحه ديننا .. » .

فمن أين جاءت تهمة التعصب التى خلعها الدكتور لويس على الأفغانى فى مرحلة العروة الوثقى ؟ أعتقد أنها جاءت من إلحاح الأفغانى – بعد أن رأى ما رأى من انكسار الثورة العرابية والاضطهاد الواقع على المسلمين من حكامهم ومن المستعمرين – على ضرورة التجمع فى دولة واحدة أو دول متوحدة فى شكل كومونولث إسلامى مع التمسك بدينهم والالتفاف حول كتابهم والاعتزاز بالعصبية الدينية ، « وهى غير التعصب المقيت » الذى يقوم على الشقاق والتطاحن بين أصحاب الديانات المختلفة ، والذى تبرأ منه جمال الدين على صفحات العروة الوثقى .

وتاريخ جمال الدين يشهد أن من تلاميذه النجباء وأصدقائه المخلصين كثيرا من غير المسلمين مثل أديب إسحق المسيحى الدمشقى ويعقوب صنوع اليهودى ، وقد شجع الأول على إنشاء جريدتى مصر والتجارة وكان جمال الدين يكتب فيهما بنفسه ، وشجع الثانى على إنشاء مجلته الهزلية « أبو نضارة » .

لقد عاش جمال الدين لفكره وعقيدته ، ولم يتعيش بفكره وعقيدته . عاش عمره يضرب فى أنحاء الأرض ينشر بذور الإصلاح . ويلهب المشاعر وينتصر للعقل فى وضوح دون مواربة . ولو تنازل عن قطعة من كرامته ولو باع ضميره ولو للحظة واحدة لوجد آلافا يغلونه الثمن .. بل كم من أمراء وحكام كانوا على استعداد أن يشتروا سكوته .. مجرد سكوته بثروات طائلة .. ولكنه آثر عذاب الجهاد .. وجوع الليالى ومفارقة الأوطان على استكانة الدعة وسلام الأذلاء .. فعاش فقيرا .. وقضى فقيرا .. وظل قبره تائها مطموسا بين القبور بلا معالم تدل على صاحبه .. إلى أن جاء أمريكى – صديق للعرب – فتبنى القبر وبناه وأظهر ما انطمس من معالمه وسواه وأظهره ولن يضير جمال الدين أن تتناوب عليه ألسنة وأقلام .. فالبقاء للأصلح .. للأصلح دائما .

الأفغانى هل كان تقدميا أم رجعيا ؟

الدكتور عاصم الدسوقى

أستاذ تاريخ حديث – جامعة عين شمس

كانت شخصية الأفغانى ولا تزال يلفها قدر من الغموض أوقع المؤرخين والكتاب فى بعض الحيرة عندما تناولوها بالدرس والتحليل ، ورغم الكم الهائل من الدراسات التى كتبت عن هذا الرجل فى الغرب والشرق على السواء ، إلا أنها لم تفلح بشكل نهائى فى اجتلاء حقيقة هذه الشخصية ، وعجزت عن أن تقول كلمة أخيرة فى الموضوع ولو أن الكلمة الأخيرة فى موضوع من الموضوعات الجدلية يعد من قبيل التفكير غير العلمى .

ولعل « البحث الجرىء » الذى قدمه أستاذنا لويس عوض فى « التضامن » يثبت تلك الحقيقة إلى حد كبير ، حيث انتهى هذا البحث البالغ الدقة إلى زيادة درجة الغموض حول الأفغانى فلم نعد نعرف بعدا خالصا من أبعاد شخصيته التى انطوت على مجموعة السلوكيات المتناقضة ، وجمعت فى ذاتها صنوفا من المعرفة الموسوعية فى الدين والأخلاق والسياسة والفلسفة .

وإذا كانت شخصية الأفغانى مثيرة وغامضة و « متناقضة » على النحو الذى أكده لويس عوض فى مقالاته ، فإن الأحكام التى توصل إليها فى ثنايا هذه المقالات أكثر إثارة وتضعه مع الأفغانى فى مأخذ التناقض ، وسوف أشير فى هذه العجالة إلى أحد تلك الأحكام المثيرة والتى تقول : « إن الأفغانى كان رجعيا فى السياسة تقدميا فى الدين وكان هذا إشكال حياته » (عدد ٢١ مايو ٨٣ ص ٢٢) .

كيف يكون الأفغانى تقدميا فى الدين ورجعيا فى السياسة ؟ لقد استند لويس عوض فى هذا الحكم العام على جزئية فى نشاط الأفغانى السياسى عندما

اقتنع الأفغانى تحت تأثير رياض باشا بمبدأ « تجديد شباب الإسلام داخل إطار الخلافة العثمانية » وهذا يعنى أن الخلافة العثمانية تمثل الرجعية السياسية بينما التجديد فى الإسلام يعنى التقدمية . وبصرف النظر عن مناقشة أفكار رياض باشا هذه التى اقتنع بها الأفغانى فإن محور نشاط الأفغانى كما أثبته لويس عوض يتصادم مع هذا الحكم فالأفغانى – كما جاء فى الدراسة – كان يسخر الفكر لخدمة السياسة أكثر مما يسخر السياسة لخدمة الفكر (عدد ١٦ إبريل ٨٣ ص ٢) .. وهو « يستخدم الدين لتحقيق القومية على أساس الدين لا على أساس العنصر » (عدد ٢٠ إبريل ٨٣ ص ١٢) .. « والأفغانى لم يكن متدينا بالمعنى المفهوم ولكنه كان ينظر إلى الدين كمجرد دافع للجماهير الجاهلة لتحصيل الاستقلال السياسى وبناء الإمبراطوريات » (نفس العدد) فأين هنا تقدمية الدين ورجعية السياسة ..؟ هل تحقيق الاستقلال السياسى يعد رجعية سياسية .. هل حركة القومية تمثل رجعية سياسية ، وإذا كانت كذلك فهل يستقيم استخدام محرك تقدمى (الدين عند الأفغانى) فى سبيل هدف رجعى !؟

لقد وقف الأفغانى بشهادة لويس عوض فى مراحل حياته يعاون الثوار على السلطة .. كان فى إيران مع السياسيين ضد الشاه ، وكان فى الهند مع الثوار المسلمين ضد الاحتلال البريطانى ، وكان فى أفغانستان مع الثائر أعظم خان ، وفى إستانبول كان مع تركيا الفتاة ضد السلطان العثمانى ، وإذا كان الأفغانى فى البلاد التى نزل بها لم يبادر بإعلان ثوريته على السلطة بصراحة بقدر ما كان يهتم بإبراز رضا السلطة عنه (عدد ١٤ مايو ص ٢٩) فليس فى هذا ما يعيبه على الإطلاق ، وذلك أن العمل الثورى بداهة يتطلب من صاحبه مثل هذا المسلك .. أن يتوارى عن السلطة التى يناضل ضدها .. أن يدخل فى روعها أنه ليس ضدها إلى أن تكون الظروف مواتية لتوجيه الضربة المناسبة .

وطالما كانت الثورة على الظلم والاستبداد هدف الأفغانى فى نشاطه السياسى فليس مما يعيبه أنه كان ينتقل من مرحلة إلى أخرى فى حياته بين نقائض الفلسفة فى يسر شديد ، إذ من الأوفق أن نقول إنه كان يستعين بكل نقائض الفلسفة التى تعلمها فى حياته للوصول إلى هدفه .. ومن هنا بدا للنظرة الظاهرية

ازدواجيا أو متناقضا « يفصل الكلام بحسب من يخاطبه وبحسب ظروف الزمان والمكان »وعلى هذا الأساس يمكن القول : إن النضال ضد الظلم والاستبداد بمثل البعد الواضح فى شخصية الأفغانى لا يرقى إليه التشكيك ودون الالتفات كثيرا إلى « تناقض » الوسائل التى كان يتوسل بها طالما أنها كانت تستخدم فى سبيل هدف واحد .

أما تفسير لويس عوض لوقوف الأفغانى إلى جانب توفيق لولاية حكم مصر بعد خلع إسماعيل ، والصراع بين أنصار حليم وأنصار توفيق على هذا المنصب والقوى الكبرى المساندة لكل طرف من طرفى الصراع فهذه مسائل محل اجتهادات ولا يكفى فى الدلالة عليها ما ذكره فى بحثه ، لكن اللافت للنظر أن لويس عوض فى سبيل إثبات أن الأفغانى كان يناصر توفيق وبالتالى محور تركيا / إنجلترا يلتجئ إلى استشهادات غير متماسكة .. من ذلك قوله : « إن الأفغانى كان يذكر المصريين بكل غزاة مصر فيما عدا الأتراك والإنجليز فى حين أن الوجود التركى وسطوة الإنجليز فى الوزارة النوبارية كانا أكبر خطرين ماثلين على المصريين » (عدد ١١ يونيو ٨٢ ص ٢٢) فهل يطلب لويس عوض من الأفغانى أن يكون مهاجما للأتراك والإنجليز آنذاك مع السطوة التى كانا يتمتعان بها فى البلاد .. أى أن يقدم نفسه للمشنقة فى يسر وهدوء .. ألم يكن يكفى الرجوع إلى التاريخ الماضى لاستنفار الحاضر ؟ ولماذا لا نقول : إن الأفغانى قد ناصر توفيق بعد أن أجمع المصريون على فساد حكم إسماعيل (عدد ١٦ يوليه ص ٢٥) على أمل أن يكون فى ذلك حل للمشكلة خاصة وأن توفيق فيما يظهر للأفغانى كان واقعا تحت تأثيره .

ثم يقول لويس عوض : « إن الأفكار العثمانية أدت إلى استقطاب ذلك الجناح المحافظ من مجاهدى الحزب الوطنى الحر ، ثم مجاهدى الثورة العرابية مما أحبط الثورة بتوجيهها فى مسارات دينية بدلا من تعميق جذورها المصرية » (ص ٣٣) وهذه نتيجة أخرى مثيرة فلو فرض أن ذلك كان صحيحا فكيف يتفق هذا مع ما أشار إليه لويس عوض فى نفس الصفحة من أن الأفغانى فى خطبة (؟)

أبرز دور القوميات فى نهضة الأمم وأدان التعصب الدينى واستبداد الحكام والأخذ عامة بأسباب القوة والتقدم فى الحضارات الأجنبية .

وأخيرا يكفى الأفغانى فخرا أن الشخصيات المعاصرة له من الأصدقاء والمريدين على اختلاف مشاربهم (محمد عبده وأديب إسحاق وسليم العنحورى وجورجى زيدان) قد أجمعوا على دوره فى التمهيد للثورة العرابية وحركة التحرر المصرية وحركات التحرر فى البلاد الإسلامية فى مواجهة الاستعمار البريطانى .

أباطيل الاستشراق !!

الدكتور عبد القادر محمود

أستاذ الفلسفة الإسلامية بجامعة القاهرة

من البداية أؤكد أننى لست من دعاة الحجر على الآراء . حول مناقشة أعلام الفكر الإسلامى أو القضايا الإسلامية فى القديم والحديث ، سواء صدرت عن أعلام المسلمين أو غير المسلمين ، أجانب أو مستشرقين أو تابعين لكثير من مناهج الاستشراق أو المستشرقين ، تلك التى كان ولا يزال أهم أغراضها الكيد للإسلام ولسلطان المسلمين .

نقول هذا بكل ثقة ويقين لكننا لا نستطيع أن نتوقف عن رجم أى رأى أو صاحب منهج ، له خلفيته الخبيثة السافرة ولن نحجم عن رجمه حتى ولو كان من المعصومين من الخطايا إعلاء وحماية ورعاية لكلمة الله العليا .

نقول هذا بمناسبة ما ينشره الآن الأستاذ الدكتور لويس عوض حول جمال الدين الأفغانى سعيا وراء تشويه شخصيته الفكرية ، ضمن مخطط العدوان الكبير على أصالة التراث الإسلامى قديمه وحديثه .

ولن أتعرض هنا طويلا للدفاع عن الأفغانى فحسبه مدرسته الكبرى مع محمد عبده والكواكبى ، وابن باديس ، ومحمد رشيد رضا ، والمودودى ، والندوى ، وما تطور عن هذه المدرسة من مدارس تجديدية من أمثال محمد إقبال ومالك بن نبى ، وما تأسس مع مدرسة مصطفى عبد الرازق فى الفكر الإسلامى المعاصر وعلى المستوى الأكاديمى فى الجامعات الإسلامية والعربية .

لكننى أناقش القضية من زاوية خاصة ، سبق لشيخنا وصديقنا العالم الأديب الكبير الأستاذ محمود محمد شاكر معالجتها ، بكل يقظة ويقين ، على صفحات مجلة الرسالة فى أكثر من عشر مقالات ومنذ عشرين عاما مواجهها

شطط لويس عوض (أديب مصر الرسمى كما كانوا يقولون) وعلى صفحات الأهرام الغراء بالذات ، حين كان يدعو للشك فى أصالة فكر ابن خلدون والمعرى وابن رشد وغيرهم ودعواه أن نبوغ هؤلاء وأمثالهم إنما كان فى حقل مدارس الرهبنة النصرانية أو اليهودية إلى آخر هذا الهراء الذى كان ولا يزال يدعمه بالمصادر الزائفة الصهيونية وغير الصهيونية .

أما الأفغانى فحسبى أن أذكر باختصار شديد أنه فى كل أعماله قد وصل إلى النقط التالية :

١ – أن الإسلام دين التوحيد الحق البعيد كل البعد عن كل صور وأشكال الوثنيات .

٢ – أن الإسلام دين الكمال العقلى (الذى قرر المزايا البشرية على هذا النهج) .

فالناس يتفاضلون بالعقل والفضيلة إذن فلا صحة لدعاوى تمايز الأجناس التى زعمها « رينان » وأمثاله ممن ناقشهم هو وتلميذه محمد عبده .

٣ – أن الإسلام دين العقيدة القائمة على الإقناع العقلى لا التقليد الأعمى .

٤ – أن الإسلام دين العزة والقوة ، لا دين الضعف ، ومن هنا يرفض الإسلام كل قانون يخالف شريعته وينبذ كل سلطة لا يكون القائم عليها ماضيا على صراطه المستقيم ، ومن هنا دعا إلى فكرة الجامعة الإسلامية سعيا للوحدة الشاملة المتكاملة .

ولاشك أن هذه الدعوة قد حوربت من جميع الجبهات الاستعمارية ، التى استغلتها بالذات للتفرقة بين المسيحيين والمسلمين ولم تكن إنجلترا أو أمريكا وحدهما فى هذه الجبهة المعادية للإسلام والمسلمين ، بل كان « لينين » بنفسه وفكره فى مواجهتها حين طالب فى المسودة الأولى التى وضعها للمؤتمر الثانى للأممية الشيوعية (الكومنترن) حول مسألة القومية ، بضرورة النضال المستمرضد الجامعة الإسلامية وما شابهها من تيارات .

٥ – دعوة الأفغانى الواضحة بفتح أبواب الاجتهاد الذى لا يخرج عن

أصول الكتاب والسنة ومن هنا ذكر فيما ذكر عن المتوقفين أو المتجمدين عند مشارف النصوص : « إننى لا أرتاب بأنه لو فسح فى أجل أبى حنيفة ومالك والشافعى وأحمد ، وعاشوا إلى اليوم ، لداموا مجتهدين يستنبطون لكل قضية حكما من القرآن والحديث وكلما زاد تعمقهم ازدادوا فهما وتدقيقا » .

٦ – دعوة الأفغانى للثورة والعداء لكل الفلسفات المغلقة ، تلك التى تدعو للصمت أمام مناطق الكون الرحيبة الأمر الذى أكد فيه الأفغانى إيمانه بسلطان العقل على فتح وكشف المغاليق الكونية والنفسية كما أكد الصلة الوثيقة بين الفكر والعمل ، على أساس : « أن كل شهود يحدث فكرا وكل فكر يكون له أثر فى داعية يدعو إليه ، وعن كل داعية ينشأ عمل . ثم يعود من العمل إلى الفكر دور يتسلسل ولا ينقطع الانفعال أو الاتصال بين الأعمال والأفكار ما دامت الأرواح فى الأجسام . وكل قبيل هو للآخر عماد ، آخر الفكر أول عمل وأول العمل آخر الفكر » .

من هنا مجد الأفغانى قدرة الإنسان وحريته ، ودعا إلى حمايتها ورعايتها وتنميتها فى الوقت الذى أبان عن فكرة القضاء والقدر ، وكشف أنه قد شابتها أفكار جبرية غير محمودة لادينا ولا عقلا فلا غرابة أن نجد تطلعا باصرا من الأفغانى يؤكد فيه أن العقل الإنسانى سيكتشف قريبا صفحات بيضاء بلا نهايات ، وميادين علمية بلا حدود . أو كما يقول بلسان علمى مبين : « وعندى أن العقل إذا ظفر فى هذا العراك والجدال ، تغلب إقدامه على الأوهام ، واستطاع فك قيوده ، ومشى مطلق السراح ، لا يلبث طويلا إلا وتراه قد طار بأسرع من العقبان وغاص فى البحار يسابق الحيتان ، وسخر البرق بلا سلك لحمل أخباره ، وتحادث عن بعد أشهر مع غيره ، كأنه قاب قوسين أو أدنى . وهل يبقى مستحيلا إيجاد مطية توصله للقمر أو الأجرام الأخرى ؟ » « إن أسرار الطبيعة ما وجدت إلا للإنسان ، وما وجد الإنسان إلا لها » .

إن هذا قطرة فى بحر الأفغانى ومن ثورة الأفغانى التى خاض غمارها ثلث قرن ، لكنها عاشت وتعيش إلى الأبد مع مدرسته الكبرى فى أنحاء العالم الإسلامى وغير الإسلامى .

ونعود فنقول ، كما قلنا ، وكما قال شيوخنا وإخواننا فى أكثر من كتاب وبحث ، إنه من الواجب على أمثال الدكتور لويس عوض ، أن يقصر بحوثه على النواحى الأدبية والفنية ، بحكم تخصصه الأكاديمى ، وإذا كان فى هذا نوع من الحجر ، فهو حجر علمى يجب أن يتمسك به كل من يدلى برأى أو يخط كلمة أو حرفا ، فى أى حقل من حقول المعرفة .

أما أن يتعرض لأعلام الفكر الإسلامى قديما أو حديثا . فنحن مستعدون لرجم آرائه والقول له ولأمثاله : « مكانكم يا أصداء أباطيل المدارس الاستشراقية فرءوسكم وعقولكم عارية » .

أقول هذا داعيا كل مسئول عن الفكر الإسلامى فى أنحاء العالم وبخاصة شيوخنا من رجال الأزهر وعلمائه ، وإخواننا الأكاديميين فى سائر الجامعات الإسلامية والعربية ، إلى مواصلة الكفاح بكل الوسائل المقروءة والمشهودة والمسموعة وبكل اللغات ، للدفاع عن كلمة الله العليا ، وحماية التراث الإسلامى وأعلامه من سموم الأباطيل والترهات والرءوس الجوفاء ، أو الممتلئة حقدا على أصالة الفكر الإسلامى أو التراث الإسلامى . والله معنا ﴿ **وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ** ﴾ .

صاحب الرسالة ورجل المهمات

الدكتور عبد الفتاح الديدى

صديقى وأستاذى الدكتور لويس عوض ؛ عزيز على معزة جمال الدين الأفغانى فى قلبى وخاطرى وقد تتلمذت على الدكتور لويس عوض فى أولى السنوات التى قضيتها بكلية الآداب جامعة القاهرة . ولا أزال وسأظل أكن له شيئا من الحب الذى يتناسب مع شخصيته ، وسأظل أحمل حبا لشخص جمال الدين الأفغانى فى قلبى يجعلنى أرفض إلى الأبد النظر إليه كأحد العملاء ، وأستاذى الدكتور لويس عوض يعلم أنى عشت حياة لم تخل فى أى لحظة منها من الاتصال بالعملاء فى فرنسا ثم فى ألمانيا ومصر وأصبحت أعرف من تعامل على ذلك النحو من لحظة عابرة ، وكذلك فعل أستاذنا العقاد ولو كنت قد سمعت مرة من أستاذى العقاد ما يثير أدنى إشارة إلى وضع الأفغانى لهان الأمر ، ولكن العقاد ورث احترام الأفغانى عن محمد فريد وجدى وحسن الطويل وكليهما كان رجلا أخلاقيا بالدرجة الأولى .

وما كانت لتفوت العقاد أى شبهة جاسوسية فى شخص الأفغانى فالواقع أن الأفغانى كان بطبعه مهيأ لحمل رسالة كبيرة وهى رسالة تجديد الإسلام والدعوة إلى ربط الحضارة والمدنية المعاصرة بأطراف الإسلام من كل نواحيه ، وجاء الأفغانى إلى مصر سنة ١٨٧١م وبدأ بعد ذلك بسنوات نشر كتاب جيزوه عن المدنية الفرنسية مترجما فى صحيفة الأهرام ، وتأثر به الأفغانى أيما تأثر .

المهم هو أن صاحب الرسالة يختلف اختلافا جوهريا عن صاحب المهمة فصاحب المهمة رجل مسالم جبان يمضى فى هدوء إلى حيث يحقق هدفه ولم يكن الأفغانى مستمعا بقدر ما كان صاحب عطاء مستمر ، ووصل إلى مصر قبل الاحتلال البريطانى بعشر سنوات .

وقبل ذلك حلت الثورة حينما حل جمال الدين ، مما يدل على أن شخصيته قد تهيأت بتكوينها لكى تكون شخصية ثائر ، فكان الأفغانى مغناطيسيا بتأثيره الثورى حينما حل ، وحاز إعجاب وتوقير تلاميذه وكلهم من الأفذاذ .. ولم يحتل من أجل أهداف أبعد من تحقيق الثورة . ولم تظهر على دعواه الدينية أى ملامح قاتمة ، وإنما كان مفتوحا مجاهرا فى كل تصرفاته كما كان واضع البذرة الحقيقية للتيار الدينى والأصيل الذى يمثل عصب الفكر فى بلادنا .

والدكتور لويس عوض يعتقد أنه وقع على اكتشاف خطير بأن قرأ خطاب القنصل الإنجليزى فى كابول عاصمة أفغانستان الآن وهو يقول عن الأفغانى إنه من رجالنا المأجورين ولا أستطيع هنا أن أناقش قضايا الجواسيس ، ولكن ببساطة نحن نعرف فى أمثال هذه الظروف مئات الأمثلة التى لا تدل على قليل أو كثير ، ونحن نعرف قوما قيل عنهم ذلك لمجرد المنافسة على فتاة أو المنافسة فى مجالات العمل نفسه أو لإبراز البراعة التى استطاع بها ذلك القنصل وغيره البرهنة على براعتهم أمام المسئولين ، والدكتور لويس عوض يكتب الآن عن الثورة والثقافة فى مجلة المصور ويستطيع أن يراجع الأسماء التى ذكرها ليعرف كم منهم كان على وشك الإعدام بسبب اتهامات أو مظاهر ذكاء من هذا القبيل . وكان من الأسهل على بريطانيا أن تحارب الكثيرين من المصريين والكثير من الحركات الناجحة بسبب التشكيك فى الشرفاء وهو أمر وارد فى كثير من الحالات المعارضة .

بقيت مسألة إنفاق جمال الدين الأفغانى على حياته وهذه مسألة فى الغالب لا تعوق الثائر الموهوب ، ولم تعرف عن الأفغانى أى نفقات خارجة عن أبسط المألوف ، وحياة رجل كالأفغانى كما وصفه أصدقاؤه فى ذلك ما كانت لتتطلب منه أكثر من جنيه واحد فى الشهر بما فى ذلك السكن الذى كان يأوى إليه ولا ننسى أن الأزهر حينذاك كان يدبر هذا كله للمجاورين فضلا على أنه كان ينشر ويصحح كما أن تلاميذه كانوا جميعا من المبرزين وبعضهم كان ميسور الحال إلى درجة ملحوظة ومنهم رياض باشا صديق محمد عبده .

وأعجب العجب أن جمال الدين الأفغانى لم يطرد من مصر بمفرده وإنما طرد معه بأمر الخديوى توفيق أديب إسحق وهو مسيحى من تلاميذ الأفغانى . وهذا يدل على رحابة أفق الدعوة التى دعا إليها الأفغانى وأرسل إليه الخديوى نقودا أعطيت إليه ساعة السفر فردها الأفغانى قائلا قولته المشهورة : « إن الليث لا يعدم فريسته حيثما كان » .. ولا يمكن أن يكون ذلك موقف جاسوس عادى .

ولو كانت الجاسوسية تفسيرا لعبقرية جمال الدين الأفغانى لقبلناها مسرورين بالوقوف على سر هذا الرجل العظيم ، ولكن العجب كل العجب أن يكون مثل هذا الرجل موجودا بين ظهرانينا ويندحر الشرق ولو كانت التهمة صحيحة لأقبل الجاسوس الأفغانى على مفاتن الدنيا يأخذ منها ويعب ولكن هل يكون حرمان كل شيء على المرء الشريف جزءا من جاسوسيته هذا هو السؤال الذى أطرحه على الدكتور لويس عوض وأتمنى أن يكون العذاب من أجل الإسلام والوطن العربى أفضل فى رأيه من جنيه واحد فى الشهر يتلقاه الأفغانى من بريطانيا العظمى .

الأفغانى والإسلام

الدكتور عبد المنعم إسماعيل

جامعة عين شمس

يبدو أن الدور الذى قام به « حكيم الشرق » السيد جمال الدين الأفغانى فى مواجهة الهجمة الاستعمارية الشرسة التى بلغت مداها فى القرن الماضى قد أضاف إلى أعدائه السياسيين أعداء من نوعيات أخرى وبعد أن كنا نقرأ فى بعض المراجع الأجنبية الإنجليزية بالذات تلميحات تستهدف النيل من مكانته الدينية وإشارات إلى شخصيته الغامضة المحيرة ، ظهرت فى الآونة الأخيرة محاولات أكثر مكرا هدفها النيل من قادة البعث الإسلامى ، وقديما قال شاعر عربى :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

إن الكتب والمقالات التى نشرت بالعربية ولغات أجنبية عدة عن حياة جمال الدين الأفغانى قد كشفت عن الدور القيادى المؤثر الذى قام به فى مرحلة من أخطر المراحل فى تاريخ العالم الإسلامى ، حتى لقد أجمع المخلصون بما فيهم كتاب غربيون بارزون على أن الرجل هو أول من نبه بتصميم إلى خطورة التحدى التاريخى بين الإسلام والغرب .

وربما تكون هناك ضرورة علمية للتحقق من هوية جمال الدين لما هو معروف من أن المسلمين الشيعة كان لهم دور يختلف عن دور المسلمين من رعايا الدولة العثمانية لكن هذه المسألة تعد فيما يتعلق بالقضية التى آمن بها جمال الدين وعمل من أجلها مسألة ثانوية لقد ذكرت بعض المصادر الغربية أنه ولد فى إيران وأنه درس فى النجف (المدينة الشيعية المقدسة) ولقد استنتج البعض من هذه المعلومة أن الرجل كان مستعدا لإخفاء جوانب من حياته ومعتقداته فى سبيل تحقيق أهدافه السياسية ، وقيل أيضا : إنه تحول من المذهب

الشيعى إلى المذهب السنى ، والواقع أن جمال الدين – الذى وقف إلى جانب علماء الشيعة فى إيران وشجعهم على معارضة الامتيازات التى أعطاها الشاه ناصر الدين للبريطانيين – لم يشغل نفسه مطلقا بالخلافات المذهبية – ولم يحاول التوفيق بين المذهب السنى والمذهب الشيعى بل كان يتجاهل بتصميم ما بين المذهبين من الخلافات ، وما يقال عن حرصه على تأكيد ارتباطه بالمذهب السنى حتى يرضى تلاميذه وأتباعه فى تركيا ومصر إنما هو قول لا يقدم عليه .

إن الخط الرئيسى الذى كان يسير فيه جمال الدين كان هو الخط المضاد للاستعمار الغربى الذى شرع يتسلل إلى شعوب آسيا وإفريقيا وقد أبى البعض مجرد التماس الرأى فى حقيقة بسيطة هى أن جمال الدين كان شديد الإيمان بالقوة الدينامية للإسلام .. وإنه كان يدرك أن العقيدة الإسلامية هى العامل المشترك بين الشعوب التى كان الاستعمار الغربى يتسلل إليها ويمد إليها نفوذه فى آسيا وإفريقيا ومن ثم أشاعوا ذلك الادعاء المتهافت القائل بأن جمال الدين لم يكن مهتما بالإسلام من حيث هو ، وإنما وجد فيه أداة اتصال مناسبة تتيح له الهجرة من بلد إلى بلد ، وتجعل منه عضوا مقبولا فى الجماعة الإسلامية بل إن منهم من تجاوز كل ما هو قابل للتصديق – مثل إيليا قدورى العراقى المنحدر من أصل يهودى – فزعم أن جمال الدين وتلميذه محمد عبده ليسا من المسلمين السلفيين .

كأن المطلوب من البسطاء إذن أن يعلموا أن السيد جمال الدين الأفغانى ، النجم اللامع فى تاريخ حركات البعث الإسلامى رجل مضلل فهو إيرانى لا أفغانى ، وشيعى اثنا عشرى لا سنى سلفى ، وبعد هذا لا تكون هناك صعوبة فى إلصاق أحط التهم برجل كذب على المسلمين وأخفى هويته الحقيقية ، والأهم من هذا أن يتسلل إلى عقول المسلمين من غير الشيعة أن جمال الدين دسيسة شيعى متأثر بالبابية ولا يستبعد أن يكون بهائيا فالبهائية الملحدة فرع من البابية على أى حال وهذا الكلام ليس مجرد استنتاج من عندى فإن كتابا ظهر فى أمريكا حديثا عن الإسلام يكاد يتعمد إشاعة البلبلة حول قادة البعث الإسلامى وفيهم جمال الدين الأفغانى .

ربما تكون الحملة المسعورة التى تحاول النيل منه جزءا من حملة أكبر أرجو ألا تخفى دوافعها على إنسان .

وما دام الأمر كذلك فإننا نبادر فنؤكد أنه لو صح أن جمال الدين الأفغانى إيرانى شيعى اثنا عشرى فإن هذا لا يقلل من قدره فالعداء بين الإمبراطورية الصفوية التى جعلت من المذهب الشيعى المذهب الرسمى لإيران وبين الإمبراطورية العثمانية السنية لم يكن عداء مذهبيا بل عداء سياسى هدفه توسع الصفويين على حساب جيرانهم من رعايا الإمبراطورية العثمانية ، وأتباع المذهب الشيعى الاثنى عشرى كانوا دائما بمعزل عن الخلافات المذهبية التى كانت ميليشيات الفرق الإسماعيلية تثيرها بين الحين والحين .. ولقد كان الإسلام هو الطابع العام المميز للعلاقة بين الشيعة والسنة كما كان انتقال الأفكار بين الطرفين أمرا مألوفا . على عكس ما نراه الآن من صراع دموى بين بعض المذاهب المسيحية فى إيرلندة .

وجمال الدين الأفغانى لم يمزق العرف الذى كان سائدا فى عصره عندما وصف نفسه بالأفغانى ، فالمعروف أنه استقر بالأراضى الأفغانية فى منتصف الستينيات من القرن التاسع عشر ، وأنه عمل كبيرا للمستشارين بها وشارك فى رسم سياستها ، وكانت بلاد الأفغان قد وقعت فى أثرة النفوذ البريطانى فعمل جمال الدين على تشجيع الحاكم على مقاومة البريطانيين إيمانا منه بأن دار الإسلام كل لا يتجزأ وكان هذا هو سبب إبعاده من أفغانستان بعد نجاح المؤامرة التى دبرت لها بريطانيا بالتعاون مع المطالب بعرش أفغانستان ، وعلى أية حال فإنه لم يكن من الممكن أن يكون جمال الدين نموذجا مكررا لعلماء الشيعة فى عصره .

وأن فكرة الوفاء وولاءه الشديد للأمة الإسلامية ساعداه على الانطلاق بعيدا عن التصورات الفلسفية والباطنية للمذهب الشيعى وأن يكتفى بما كان يروج له بعض الشيعة فى عصره من أن غياب الإمام الثانى عشر لا يحول دون ظهور رجل مؤمن إيمانا حقيقيا يهدى الناس إلى ما يحقق لهم الخير فى الدنيا والآخرة ، ومن المؤكد أن جمال الدين كان يعتمد على أن ظهور هذا المرشد وتقدمه لأداء

رسالته ضرورة تحتمها المواجهة الحتمية بين الغرب من جهة والعالم الإسلامى بوصفه وحدة ديناميكية قوية من جهة أخرى .

ومن هذا المنطلق تحمس جمال الدين لما كان يطالب به السلطان عبد الحميد من أن تكون عاصمة الدولة العثمانية مركزا للخلافة الإسلامية التى ينضوى تحت لوائها جميع المسلمين فى العالم وأن يكون السلطان خليفة المسلمين يدين له كل المسلمين بالولاء والطاعة . ومن هذا المنطلق أيضا كان جمال الدين يستخدم كلمتى الإسلام والغرب بطريقة تؤكد علاقة التحدى المتبادلة بينهما وتظهر أن هذا التحدى ظاهرة تاريخية حتمية .

وهناك شبه إجماع على أن جمال الدين واحد من الدعاة العظام الذين آمنوا إيمانا راسخا بالوحدة الإسلامية حتى لقد كرس حياته للعمل الدائب فى سبيل الوصول إلى هذه الغاية . ولقد انعكس هذا الإيمان على حياته الخاصة وفكره ومواقفه وكتاباته بل إنه يمكن القول إن تأثيره على الحركات اللاحقة التى استهدفت تحقيق البعث الإسلامى من خلال التعريف بالقوى الكامنة فى الأخوة الإسلامية كان عظيما .

أما ما يشاع خطأ عن غموض شخصيته فربما يكون مرده إلى الميادين الكثيرة التى عمل فيها والأساليب المختلفة التى اتبعها للوصول إلى هدفه العظيم لقد كان يبدو فى بعض الأحيان وكأنه المدافع الأخير عن قلعة الإسلام وأن العناية الإلهية قد وكلت إليه تنظيم المقاومة لوقف تدفق المدنية الغربية التى تهدد بإغراق دار الإسلام القديمة والقضاء عليها ، وفى أحيان أخرى كان يبدو وكأنه من غلاة المتحمسين لهذه المدنية .. والتحليل المحايد لمواقف جمال الدين الأفغانى يؤكد أنه لم يكن ثمة تعارض أو تنافس بين هذه المواقف فالرجل كان من أشد أنصار التجديد وكان يسعى جاهدا إلى اكتشاف منابع القوة فى الحضارة الغربية وكان لا يفتأ يدعو تلاميذه ومريديه إلى اكتشاف منابع القوة فى الحضارة الغربية وكان لا يفتأ يدعو تلاميذه ومريديه إلى ضرورة المحافظة على حضارتهم الإسلامية الخاصة بالتعليم من النمط الحضارى الغربى .

ومن المؤكد أن إلحاحه المستمر على هذه الفكرة الأخيرة قد جعل البعض

يستنتجون أنه مجرد رجل تشرب المبادئ الغربية غير الدينية وأنه لم يكن عالما مسلما بالمعنى التقليدى الشائع فى عصره وإنما داعية سياسى اتخذ من الإسلام أداة لتحقيق ما كان يسعى إلى تحقيقه من إصلاحات سياسية واجتماعية .

الأفغانى والسياسة فى العقيدة (المقال الثانى للدكتور عبد المنعم إسماعيل) :

رأينا أمس كيف استنتج البعض أن الأفغانى تشرب الفكر الغربى غير الدينى ، وأنه لم يكن مسلما بالمعنى التقليدى لعصره ، وإنما داعية سياسى اتخذ من الإسلام أداة لتحقيق ما كان فى مسيس الحاجة إلى تحقيقه .

واليوم .. نقف ، أكثر ، عند أصحاب هذا الاستنتاج وما يتفرع من ذلك الجدل بالنسبة لشخصية الأفغانى بين العقيدة والسياسة .

ويستند أصحاب هذا الاستنتاج إلى ماهو معروف من أن جمال الدين كان شديد التحمس للفكر العلمى وأنه خاطر بمكانته الدينية فى موقفين الأول فى عام ١٨٧٠ حين دعى إلى إلقاء محاضرة فى حفل افتتاح إحدى الجامعات فى إسطنبول ومع أنه كان يعلم أن علماء الدين كانوا بسبيل تنظيم حملة ضد الجامعة الجديدة ومديرها فإنه أصر على أن يدعو « الملة الإسلامية » لدراسة جميع فروع العلم . وأن تحذو حذو الشعوب الغربية المتمدنة وفى العام نفسه ألقى محاضرة أخرى عن أهمية الفلسفة مع علمه بتحفظات علماء السنة على هذا الموضوع من فروع البحث .

الموقف الآخر يتمثل فيما استخلصه البعض من الرسائل التى كان يتبادلها إبان وجوده فى فرنسا مع المفكر الفرنسى أرنست رينان صاحب الادعاء المشهور بأن الجنس السامى عموما يفتقر إلى الخيال الإبداعى والمعروف أن جمال الدين وقع فى الفخ الذى أعد له فاضطر إلى التسليم بأن جميع الأديان تعوق التقدم العلمى بما تفرضه من مسلمات ، وكان جمال الدين يعتقد أنه يقدم الدليل على أن الإسلام مثل كل الديانات السماوية الأخرى وأن العرب من حيث هم جنس ليسوا وحدهم الملومين وأن من العدل أن يوجه اللوم إلى غيرهم بدل أن يوجه إليهم بشكل خاص .

وربما يكون من الضرورى أن نذكر بما أوردناه أيضا من أن اضطرار جمال الدين إلى أن يحارب فى أكثر من جهة أجبره فى أحيان كثيرة على أن يعدل خططه وأن يستخدم السلاح الأكثر فعالية من غيره فى كل معركة يخوضها وهذا ما جعل البعض يتصورون خطأ أنه متناقض مع نفسه من ذلك مثلا مقالاته التى نشرها فى الهند إبان إقامته بها والتى أكد فيها ضرورة وحدة الهند فى مواجهة النفوذ البريطانى وفى هذا تخلى مؤقتا عن القضية الأساسية المتعلقة بالوحدة الإسلامية الشاملة وراح يؤكد أهمية وحدة اللغة حتى لقد عدها أقوى فى مجال الوحدة الوطنية من وحدة الدين .

وأن هذا لا يعنى بالضرورة أن جمال الدين تخلى عن دعواه الأصلية المتمثلة فى إيمانه بأن القوة الدينامية للإسلام هى وحدها القادرة على تغير الواقع المتردى للعالم الإسلامى ولقد استغل أعداؤه أسلوبه الخاص فى الدفاع عن القضية الإسلامية ومنابع القوة فيها فأشاعوا أنه لم يكن مهتما بالإسلام قدر اهتمامه بالتغير الاجتماعى أو أن الأمور الدنيوية شغلته أكثر من الأمور الدينية ولسنا فى حاجة إلى تبيان هذه الدعوى بطبيعة الحال .

ونحن نميل إلى الاعتقاد بأن هذا الأسلوب المتهافت من أساليب المحاجة كان أحد الأسباب التى أدت بجمال الدين إلى أن يحرص فى أخريات حياته على الالتزام بدور العالم الدينى التقليدى وفى هذه الفترة ظهر كتابه الذى خصصه لتفنيد دعاوى الماديين وهو كتاب كان جمال الدين قد كتبه بالفارسية وظهرت طبعته الأولى فى الهند عام ١٨٨١ ثم أعاد جمع أجزائه التى تتناول العقلانيين الغربيين من ديمقريطس حتى داروين ، وعندما نقل هذا الكتاب إلى العربية حقق انتشارا واسعا فى العالم العربى وبذلك بطلت كل الدعاوى التى استهدفت النيل مما كان لجمال الدين من كعب راسخة فى مجال العلوم الدينية .

ونلاحظ أن الكثيرين ممن اهتموا بالكتابة عن السيد جمال الدين الأفغانى لا يزالون يثيرون جدالا لا مبرر له أصلا حول مسألتين الأولى هل هو شيعى أم سنى ؟ والأخرى هل هو إيرانى أم أفغانى ؟ ونبادر فنقول إن القضية التى نذر لها جمال الدين نفسه ، وهى الوحدة الإسلامية الجامعة من شأنها أن تستبعد

مجرد التفكير فى هاتين المسألتين بل لا نبالغ إذا قلنا إن جمال الدين نفسه كان أحرص الناس على تنقية الإسلام من الانحرافات الشيعية الكثيرة ، وإنه كان يؤمن بأن هناك إسلاما واحدا وقلة إسلامية واحدة دستورها القرآن والسنة ، كما كان يؤمن بأن دار الإسلام كلها من مشرقها إلى مغربها ومن شمالها إلى جنوبها مهددة من قبل الغرب ، وإن التهديد لا يقتصر على مذهب دون الآخر أو على هذا الجزء من العالم الإسلامى دون بقية الأجزاء .

وبعد فإن الباحث يجد نفسه مضطرًا فى النهاية إلى الإدلاء ببعض الاستنتاجات التى يعتقد أنه يمكن الاطمئنان إليها أكثر من غيرها ومن الاستنتاجات التى يطمئن الباحث إلى سلامتها : ١ – أن جمال الدين الأفغانى نموذج متميز من نماذج متعددة فى مجموعها قوة رد الفعل الإسلامى تجاه امتداد النفوذ الغربى إلى دول إسلامية كثيرة فى محاولة لتخريب ثقافتها وسلب مواردها الاقتصادية ، والنموذج الذى يمثله جمال الدين هو العمل على استنفار المسلمين ودعوتهم إلى التحصن بقلعة الإسلام القديمة فى الشرق الأوسط والأخذ بعوامل القوة جميعها بما فيها العلوم الغربية . ٢ – أن جمال الدين الأفغانى داعية نشط إلى إدماج الفكر العلمى فى الفكر الدينى وهو لهذا يستخدم أساليب الدعاة التقليديين ومعجمهم اللغوى سعيًا لتضييق الهوة وإيجاد مجتمع إسلامى عصرى يقوى على التصدى للتحديات الغربية بكل أنواعها .

والملاحظ أن جمال الدين لم ينطلق فى دعوته الإسلامية من منطلق نظرى بحت فقد ساعدته إقامته فى الهند أثناء عصيان ١٨٥٧م على إدراك النوايا الحقيقة لبريطانيا لقد كان لمسلمى الهند دور ظاهر فى هذا العصيان ونتيجة لهذا تعرضوا لصنوف من البطش والإقصاء عن مواقع السلطة والتمييز العنصرى وغير ذلك من الدسائس التى عرفنا جانبا منها عندما وقعت مصر تحت الاحتلال البريطانى .

لقد رفض الأفغانى أى نوع من المصالحة مع الاستعمار وأعوانه فبينما اكتفى بعض القادة المسلمين فى الهند بمحاولة إقناع البريطانيين بأن شكوكهم فى الإسلام تقوم على غير أساس كان رد الفعل لدى جمال الدين مخالفا تماما فقد سعى إلى توسيع دائرة المقاومة فى الهند نفسها حيث عمل على تجاوز الخلافات الدينية وفى خارج الهند من خلال رحلاته إلى الدول الإسلامية الأخرى التى استهدفت إيجاد رد فعل إسلامى جماعى ضد بريطانيا بالدرجة الأولى لاعتقاده بأنها عامل التهديد الأشد خطورة فى زمانه وفى هذا يقول باحث غربى وهو إدورد مورتيمر EDWARD MORTIMER .

لقد اختار جمال الدين أن يركز على البعد الإسلامى دون البعد القومى وهذا يجعل من غير المحتمل أن تكون القومية الأوربية هى المؤثر الأول على فكره .. وهذا يقترح علينا أن يكون الإسلام نفسه هو الذى مد الأفغانى بالإطار الفكرى الذى شكل رد الفعل لديه ضد التسلل الأجنبى وعلى الرغم من كل ما يقال عن معتقدات الأفغانى فإنه كان مسلما سلفيا أى أنه كان نتاجا للثقافة الإسلامية وبطلا من أبطالها ويمتاز هذا الصنف من الرجال عادة بذكاء فريد وسعة الأفق .

إن الأفغانى كان سابقا لعصره بيد أن النموذج الذى يمثله يرينا أن الثقافة الإسلامية قادرة على مقاومة الغزو الأجنبى بطريقتها الخاصة ولئن كان من غير الممكن تجاهل الآثار المترتبة على الصدام بالغرب فإن الثقافة الإسلامية لا يمكن ببساطة أن تستسلم للتأثير الغربى .

إن التاريخ الإسلامى استطاع أن يتطور دائما إنه لا يتوقف أبدا .

التفسير الشخصى للتاريخ

الدكتور يونان لبيب رزق

أستاذ التاريخ الحديث – جامعة عين شمس

الدراسة التى وضعها الأستاذ الكبير لويس عوض عن جمال الدين الأفغانى تحت عنوان (الإيرانى الغامض فى مصر) فأقامت الدنيا ولم تقعدها بعد . تتطلب وقفة خاصة من المشتغلين بالكتابة التاريخية .

وأهم ما فى هذه الوقفة متصل بالفروق الجوهرية ، والمنهجية فى نفس الوقت ، بين « التناول العلمى » ، و « التناول الفنى » لحادثة أو لشخصية تاريخية فبينما يغلب على نوعية الأولى التعامل بالأساس مع مجموع الحقائق التاريخية واستنباط النتائج العامة ، ويراعى فى كل ذلك روح العصر وطبيعة الأدوات المستخدمة فى التوصل لهذه الحقائق ، فإن النوعية الثانية من التناول تقدم صورة فنية قد تولد فى مخيلة صاحبها أولا .. والذى يبحث بعد ذلك عن الحقائق التى تدعم هذه الصورة وتضع رتوشها حتى تبدو وكأنها الواقع التاريخى !!

وتقع دراسة الأستاذ الدكتور لويس عوض عن الأفغانى ، بل سائر دراساته الأخرى التى تناول فيها قضايا هامة فى التاريخ المصرى .. فى التصنيف الثانى .. أى إنها صورة يرسمها فنان بغض النظر عما فيها من حقيقة ، أكثر منها التزاما من مؤرخ لا يجد محيصا عن التمسك بكل الحقيقة .

والفنان داخل الدكتور لويس عوض هو الذى قاده إلى سلسلة من التجاهلات لحقائق والتمسك بحقائق أخرى مما فجر فى النهاية هذه المناقشات المحتدمة حول دراسته .

فالفنان عند الدكتور عوض هو الذى دفعه إلى تغليب (التفسير الشخصى) لمجموع الأحداث التاريخية التى صنعت مسيرة (جمال الأفغانى)

فهو يهتم كثيرا (بالماضى المريب) للرجل ، وهو يعنى بطفولته ويراه طفلا غير عادى يتصور نفسه ملك الدنيا أو ربما خليفة المسلمين وهو يعتمد فى هذا على خيالات طفل يقول : (إن أمه تنتظر منه أن يحقق وعده لها أن يجعلها حاكمة على خراسان) .

والتفسير الشخصى أقرب إلى روح الفنان منه إلى موضوعية المؤرخ بحكم ما يحوط بهذا التفسير من تفاصيل صغيرة ، بعضها مثير ، ومن طرح الألغاز والأسرار على نحو مبهر حقا ولكنه فى نفس الوقت يفتقد الحقيقة !!

ويؤثر هذا التفسير فى دراسة (الإيرانى الغامض) إلى حد يخرج معه القارئ بانطباع مؤداه أن (عالم الجاسوسية يصنع التاريخ) وهو انطباع خاطئ على وجه اليقين .

والفنان عند الدكتور عوض هو الذى يمنحه كل هذه الجرأة فى إصدار الأحكام ، فلا تكاد فقرة من فقرات الدراسة تخلو من إصدار حكم أو أكثر مما منحها طابعها اللاذع ، وإن كان فى نفس الوقت ، من وجهة النظر العلمية ، قد أفقدها دقتها الواجبة فمثلا يقطع بأن الأفغانى كان (أول من أدخل فكرة الاغتيال السياسى فى قاموس السياسة المصرية) ، وتناسى سليمان الحلبى قبل ذلك بثلاثة أرباع القرن ، ومثلا يتحدث عن ركوب الأفغانى للموجة فى قضية (تأسيس الحزب الوطنى الحر) والحقيقة أنه لم يكن هناك حزب بالمعنى الدقيق للأحزاب بقدر ما كان هناك تيار يمثل مجموع المواطنين ، وأمور أخرى على هذه الشاكلة .

والفنان عند الدكتور عوض هو الذى دفعه إلى تأويل تصرفات أو أقوال المعاصرين أو الأفغانى نفسه ، على نحو يلائم رؤياه الفنية فهو مثلا يعيب على جمال الدين تغيير مواقفه ، ودراسة حياة أى سياسى ناهيك عن أن يكون ثوريا ، تتسم بتغير المواقف تبعا للمقتضى الظرفى والفارق كبير بين التغيير والتغلب !!

باختصار فإن المنهج التاريخى كان يقتضى إبراز العنصر الأساسى المؤثر فى حركة عالم الأفغانى ممثلا فى (الهجمة الإمبريالية) التى تعرض لها المشرق والعالم الإسلامى فى تلك الحقبة بالذات ، حقبة الثلث الأخير من القرن التاسع

عشر ، وهى هجمة حكمت تصرفات حكام وساسة وثوريى الحقبة ، وبالتالى فإن إبرازها كان يمكن أن يفسر كثيرا من تصرفات الأفغانى ..

والمنهج التاريخى كان يتطلب التأكيد على ذلك الصراع الذى شهده عصر الأفغانى بين (عالم قديم) بكل مؤسساته أثبت عجزا بالغا فى مواجهة تفاقم الأطماع الأوروبية ، وبين قوى جديدة ساعية إلى تحطيم تلك المؤسسات العاجزة وبناء عالم جديد متوائم مع روح العصر وكان الأفغانى ممثلا أمينا لتلك القوى خاصة فى عدائه الشديد للمؤسسات القديمة وسعيه الدائب فى القضاء عليها .

والمنهج التاريخى كان يحتم (تمثل العصر) فلا تصدر أحكام على قضايا قديمة على ضوء المتغيرات الحديثة . فتصيد عبارة فى خطبة الأفغانى فى استانبول والخروج منها بأن الخطبة (تفيض بالملق للسلطان العثمانى ورجال دولته) كان يمكن أن يتداعى تماما لو تم الاطلاع على وثائق ذلك العصر التى كان يحوى بعضها سطورا من ألفاظ التفخيم والتبجيل للسلطان العثمانى أكثر من تلك المخصصة لفحوى الوثيقة .. والحديث فى موقع آخر عن علاقة بين أجهزة الأمن المصرية والمخابرات الإنجليزية والفرنسية يتطلب القفز نحو قرن من الزمان وهكذا ..

ومن خلال ذلك يتضح أن قضية دراسة (جمال الدين الأفغانى) هى قبل أى شىء قضية خلاف فى المنهج بين التناول الفنى للتاريخ الذى يعتمد فى الكثير على الخيال وفى القليل على الحقائق العلمية والتناول العلمى الذى يلتزم فى بنائه بالأساس بمجموع الحقائق التاريخية المتاحة .

الأفغانى والاحتلال الإنجليزى

الدكتور أحمد حسين الصاوى

القارئ المتأنى لما كتب الدكتور عوض – وهو كثير غزير – لا يلبث أن يدرك بوضوح أن له موقفا ثابتا محددا من كل ما يتصل بالإسلام أو العروبة ، وأنه لا يمل من التعبير عن موقفه هذا بالتصريح والتلميح ، وبالعبارات والسطور وما بين العبارات والسطور .

والحق أن بعض ما يكتبه الدكتور عوض فى هذا الصدد جدير بكل تقدير . لما يلفت النظر إليه من قضايا وموضوعات تستحق العرض والمناقشة غير أن الكثير مما يكتبه يبدو فى ظاهره منطقيا منهجيا جدليا .. بينما هو فى حقيقته شديد التهافت بعيد الشطط .

إن إصرار الدكتور عوض على ذلك الموقف الشخصى المتحيز يدفعه فى كثير من الأحيان إلى افتعال التدليل والمبالغة فى التخريج من أضعف المصادر وأوهى الشواهد ، لكى يصل إلى ما يريد إثباته من مقولات واستنتاجات .

ولقد فعل الدكتور هذا فى أبرز مادون من كتب ومقالات وما ألقى من محاضرات ، فعله فى كتابه « تاريخ الفكر المصرى الحديث » جزءان ، وفى كثير من مقالاته بصحيفة « الأهرام » وفى محاضراته بالولايات المتحدة وفى كتابه « مقدمة فى فقه اللغة العربية » الذى منع من التداول ثم أخيرا فى سلسلة مقالاته عن جمال الدين الأفغانى .

والحق أن الدكتور لويس عوض كاتب جرىء شديد الإصرار على موقفه فبالرغم من أن آراءه المتطرفة المتعسفة لا تلقى من المثقفين غير الرفض والتفنيد ، فإنه مستمر فى ترديدها ماض فى تكرار التعبير عنها بمختلف الصور وبشتى التنويعات لا يكل ولا يقنط مهما واجه من رفض أو اعتراض ، ومهما انحدر إليه من مزالق وترهات .

غير أنى أعتقد أن ما اتسم به « البحث الجرىء » . الذى كتبه الدكتور عوض مؤخرا عن الأفغانى من شطط وجنوح قد جاوز كل حد معقول .

إن من لغو القول ومن العبث بالحقائق الذى لا قيمة له ولا جدوى من ورائه محاولة إثبات أن جمال الدين إيرانى لا أفغانى ، وإنه شيعى لا سنى ، وإنه ولد بمدينة كذا ... إلخ .

ولكن من التجنى حقا أن يحاول كاتب – أيا ما كانت مكانته – أن ينال من قدر الداعية المصلح الثائر جمال الدين الأفغانى ، أو أن يحاول المساس بعظمته أو التشكيك فى نقاء فكره وسلامة عقيدته .

ولاشك أنه من العسير ، بل من المستحيل أن يتحدث المرء فى عجالة كهذه عن الأفغانى ، ولكن تكفى الإشارة الموجزة إلى أن الأفغانى كان من أعظم شخصيات العالم الإسلامى فى القرن التاسع عشر ، نادى بتحرير الشعوب الإسلامية ، والشرقية بوجه عام، من ربقة الاستعمار وكان لدعوته أعمق الأثر فى إيقاظ هذه الشعوب وفيما أقام به من حركات وطنية .

وكان الأفغانى كذلك صاحب مدرسة كبرى فى تجديد الفكر الإسلامى وتنقيته مما علق به من أباطيل الوهم ، وفى تأكيد حقيقة الإسلام من أنه دين العقيدة القائمة على أساس الاقتناع العقلى ، ودين العزة والقوة ، ودين الكمال الإنسانى والتقدم الحضارى .

لقد أقام الأفغانى بمصر بضع سنوات كان خلالها من أبرز العوامل التى أدت إلى بلوره رأى عام مصرى كان له أبعد الأثر فى حياة البلاد وكان من أهم وسائل الأفغانى لنشر دعوته تشجيع تلاميذه على إنشاء الصحف ومن ثم ظهرت أولى الصحف المصرية الشعبية « غير الحكومية » على أيدى هؤلاء التلاميذ من أمثال عبد الله النديم وأديب إسحق وسليم النقاش وإبراهيم اللقانى ، ويكفى الباحث أن يطالع ما كتبه أولئك الشباب فى صحف مثل « مصر » و « التجارة » و « التنكيت والتبكيت » بل ما كتبه الأفغانى نفسه فى بعض هذه الصحف بتوقيعه المستعار « مظهر بن وضاح » ليعرف أى رجل كان الأفغانى وأية دعوة كانت دعوته .

وأصدر الأفغانى فى باريس مع تلميذه محمد عبده صحيفة « العروة الوثقى » عام ١٨٨٤م ، أى بعد نفى الرجلين من مصر واحتلال الإنجليز للبلاد . ولكن لم يصدر منها سوى ثمانية عشر عددا ، ثم توقفت عن الصدور بسبب الحرب الضارية التى شنتها عليها الحكومة البريطانية فى كل مكان ، وإنى لأتساءل ألم يقرأ الدكتور لويس عوض ما كتبه الأفغانى ومحمد عبده فى هذه الصحيفة ، وهو « منشور فى أكثر من كتاب » ؟ ألم يقرأ ما كتبه الباحثون الغربيون .. قبل العرب .. عن مضمون مادة الصحيفة وأثره ودلالاته على فكر الأفغانى ومدرسته ، وعن موقف الأفغانى من الاستعمار البريطانى بالذات ؟ إن الأفغانى لو لم يكتب عن الإنجليز سوى ما صدر بهذه الصحيفة المثالية المناضلة لكفى بذلك دليلا على موقفه المعادى الصلب من الاستعمار البريطانى دون أية شبهة أو شك ، فكيف يسوغ القول بعد هذا بأن الأفغانى كان عميلا للإنجليز ؟؟

ألا فلتتق الله فى روادنا . وفى القمم التى أضاءت بنورها حياتنا وقادت نضالنا .. وعلمتنا كيف نكافح فى سبيل حريتنا ، ووقفت فى وجه كل مستعمر وغاصب .. وردت بقوة واقتدار على كل محاولة لتشوية ديننا وتراثنا .

كان الأفغانى مسلما

الدكتورة صافيناز كاظم

لا شيء أقوى من الدلالة عن الإنسان إلا قوله وعمله وإذ ما اتحد القول مع العمل وأصبحا متطابقين فى المعنى والموقف ، اتضحت الشخصية وضوحا كاملا وإن أكثر ما يأخذه الناس على الشخصية الغامضة أو المنافقة أو الجبانة ، أن أقوالها تتناقض مع أفعالها فهناك شخصية كذوب تأمر بالبر وتأتى بعكسه ، وهناك شخصية تتوعد وتهدد ثم تهدأ وتسكن ولا تنفذ من وعيدها حرفا . ولقد عج التاريخ البشرى بزعماء وخطباء ومفكرين وكتاب يقيمون الدنيا ويقعدونها على المنابر وعلى الورق ويشهد حالهم اليومى انفصالهم الكلى عن كلماتهم وأفكارهم ومعتقداتهم ولذلك كان الذى تتوافق أقواله مع أعماله شخصا لافتا للنظر يجبر أعداءه قبل أصدقائه على احترامه .

ولقد كرمنا الله – نحن المسلمين – بأن أعطانا فى تاريخنا الإسلامى فى الماضى البعيد والماضى القريب والحاضر شخصيات شريفة فذة تقف أمامنا ، قدوة ، شامخة يتمثل فيها كبرياؤنا القومى كما يجب أن يكون ، وكانت أهم صفات هذه القدوة التوافق الصارم بين القول والفعل أسوة برسولنا المفدى الذى أدان بالمبدأ القرآنى الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم ، والذين قال فيهم حديثه الشريف محذرا الأمة – أى أمة الإسلام –: « أخوف ما أخاف على أمتى من منافق عليم اللسان يقول ما تحبون ويعمل ما تنكرون » وبهذا التوجيه القرآنى والنبوى عرفنا – نحن المسلمين – النموذج القدوة فى « أبى بكر الصديق » و « عمر بن الخطاب » و « على بن أبى طالب » الذين كانوا يبكون الليل استغفارا خشية أن يكونوا بأفعالهم قد خانوا الكلمة أو أهملوها .

على نسق هؤلاء الخلفاء الراشدين والأئمة العظام ، حملة الأمانة بعد نبينا المفدى ، عرفت نهضتنا الإسلامية الحديثة – التى تولدت مع نهاية القرن التاسع

عشر ومطلع القرن العشرين لتتصدى للهجمة العلمانية التغريبية الشرسة التى أرادت أن تسرق الأمة الإسلامية من نفسها – عرفت رجالا علماء دين وقادة عسكريين وزعماء وطنيين فرضوا أسماءهم بأقوالهم وأفعالهم الصادقة رغم حصار الأعداء الذين تعمدوا إخفاء وتشويه هذه الأسماء لكننا – جيلا بعد جيل – تلقيناهم وحفرناهم فى أذهاننا : جمال الدين الأفغانى ، محمد عبده ، أحمد عرابى ، محمد فريد ، مصطفى كامل ، حسن البنا ، سيد قطب .. إلى آخر قائمة من ساروا على طريق دين الله من أمثالهم ، كانت هذه الأسماء سندا ودعما نتقوى بها لحظات كانت الأرض تميد بنا وأحلامنا تتهاوى فى قسوة والطغاة يمنون علينا أن جعلونا عبيدا خرسا كالبجع المسعور .

من بين هؤلاء أتناول زعيمنا الجليل السيد جمال الدين الأفغانى الذى كانوا يتقذرون عليه لأنه كان على كثرة أسفاره لم يحمل حقيبة بل كان يقول : « ألبس جبتى حتى تبلى فأشترى غيرها .. » والذى رفض الزواج حتى لا يظلم امرأته بفدائيته وزهده وحركته الدؤوب فى استنهاض الشعوب الإسلامية من سباتها وهوانها ، والذى كان ينفر من الإدلاء ببيانات شخصية عن تاريخ ومحل ميلاده لأنه كان يراها هوامش لا تقدم ولا تؤخر فى حقيقته الأولى والأخيرة التى تعنيه وهى « هويته الإسلامية » وكان يرفض بقوة التفكك الإسلامى لحساب العودة إلى العصبية القومية أو الجنسية أو العرقية ، وقد كان يرى أن أى تمزق أو تعارض فى ضمير المسلم بين عقيدته الإسلامية وانتمائه القومى يجب أن يحسم فورا للعقيدة الإسلامية .. وهكذا وقف يدعو الأفغانيين والإيرانيين إلى الوحدة وترك الخلافات المزعومة بينهم مؤكدا أن الأفغانيين والإيرانيين ، هاتان طائفتان هما فرعان لشجرة واحدة ، وشعبتان ترجعان لأصل واحد هو الأصل الفارسى القديم ، وقد زادهما ارتباطا اجتماعهما فى الديانة الحقة الإسلامية ، واللسان الفارسى هو لسان الطائفتين .. مذكور فى مقاله « دعوة الفرس إلى الاتحاد مع الأفغان » الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى ، د. محمد عمارة صفحة ٢١٦ – ٢١٩ .

وكان السيد جمال الدين لا يرى ما تراه بعض الجيوب العنصرية التى تعيش

فى الأوطان الإسلامية ، من أن هناك ما يسمى بالعقيدة القومية ، فكلمة عقيدة « لا تطلق إلا على الأديان والمعتقدات الفكرية وحيث يرى السيد جمال الدين « العقيدة » فى « قوة الدين الذى يقوم مقام الجنسية فى جمع الكلمة ، وتوحيد الوجهة وطلب الغلب بتلك القوة لمن خالفهم فيها .. » مذكور فى مقاله عصبية الجنس وعصبية الدين المرجع السابق ، صفحة ٣١٢ .

شخصية واضحة ناصعة مثل شخصية السيد جمال الدين الأفغانى لا سبيل إلى معرفتها إلا من وقائع تصرفاتها وتحركاتها الثابتة بنتائجها والتى كانت ترجمة حرفية لكتاباته المسجلة فى مجلة « العروة الوثقى » التى كان يصدرها فى باريس بعد انتكاسة الثورة العرابية سنة ١٨٨٢م ، وأقواله التى حققها العلماء والباحثون المتخصصون فى ذلك . وأهمها خاطراته التى أملاها على صديقه محمد باشا المخزومى من سنة ١٨٩٢م حتى وفاته ، رحمه الله ، فى ٩/ ٣/ ١٨٩٧م والتى كان يقول أثناءها لصديقه هذا : « إذا سلمت فى كتابة خاطراتى من خطر الطاغية ، وطواغيته فستصادف من أهل الجمود عنتا وتخرصا ، وقلبا للحقائق ، فلا تبال بهم . فما خلا الكون منهم يوما ليخلو زمنك . ولا نجا منهم مخلص لتنجو أنت .. » — مذكور فى الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى صفحة ١٧ .

نعم : ما خلا الكون منهم يوما ليخلو زماننا ، ولذلك فأنا لم أهتز غضبا من سلسلة المقالات التى كتبها د. لويس عوض عن زعيمنا الإسلامى جمال الدين الأفغانى ، رضى الله عنه ، ونشرتها مجلة التضامن التى تصدر خارج مصر ، تلك المقالات التى أثارت العديد من التعليقات واستفزت الكثير إلى ردود تراوحت ما بين التعقيب السريع والتفنيد الأكاديمى وتفضلت جريدة الأهرام بنشر جانب كبير ثرى من تلك الردود بأقلام مختلفة لأساتذة أفاضل ، لكن الطريف أننى وجدت نقطة خطأ مشتركة هى نقطة انطلاق كل من د. لويس عوض وخصومه فى الرأى فلقد بذل د. لويس عوض جهدا لإثبات أن السيد جمال الدين الأفغانى ليس أفغانيا سنيا بل إيرانيا شيعيا ، واعتبر هذه نقطة حارقة للنيل من الزعيم الإسلامى ، وخلط بهذه المناسبة بين المذهب الشيعى الإسلامى وبين البهائية التى يزعم معتنقوها بأنها دين جديد نسخ

الإسلام ، وحل محله ، والعياذ بالله – كما جاء ذلك فى كتابهم المسمى « الكواكب البدرية » فصل « مؤتمر بدشت » صفحة ٢١٦ – ٢٢٣ ، حيث تكون البهائية بذلك خارجة منفصلة عن الإسلام ومن ثم فلا علاقة لها البتة بأى من مذاهبه أيا ما تكون .

لقد وقعت بعض الردود التى ساءها الهجوم والتشويه المتعمد الذى أراده د. لويس عوض بالسيد جمال الدين ، وقعت فريسة للفخ الذى نصبه المنطلق الخاطئ ، الذى بدأ منه د. لويس ، فقد أفردت تلك الردود جانبا أساسيا من جهدها لدحض الدعوى بإيرانية الأفغانى وكأن « الإيرانية » أو « الأفغانية » – وهما جنس واحد على كل حال – كانت هى الهوية التى تحرك بها الزعيم جمال الدين ولم يشر أحد بقوة إلى لب حقيقة أن الرجل قد تحرك بالإسلام وجاهد فى سبيل الإسلام ودخل تاريخ الوطن الإسلامى كله ، من بوابة الإسلام . لقد كانت العالمية الإسلامية أو الأممية الإسلامية هى أطروحة السيد جمال الدين التى جمع حولها العقول وألف بها القلوب وشد إليها جهاد المسلمين عند مطلع القرن ، ومازال ورثة هذا الفكر إلى الآن يمثلون تيارا شعبيا غالبا فى مصر وليس صحيحا أنهم مجرد جيوب بين المصريين المعاصرين لاتزال تعانى من هذا التمزق بين العقيدة القومية والعقيدة الدينية كما يزعم د. لويس عوض فى نهاية مقاله « مصر تواجه ماضيها » الذى نشر بالمصور عدد ٩/ ٩/ ١٩٨٣م .

أيها السادة لم يكن جمال الدين إيرانيا ولا أفغانيا لكنه كان « مسلما » منحازا للسان العربى يدعو المسلمين كافة إلى « وحدة اللسان » بأخذ اللغة العربية المقدسة لتكون اللغة الأم لجميع المسلمين .

المفارقة الأخيرة أن جمال الدين الأفغانى كان عربيا ! لأنه كان واحدا من نسل رسولنا المفدى محمد صلوات الله عليه وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين .